وزارة التعليم العالى والدراسة العلمي

جامعة عمال ثليجي بالأغواط

كلية الأدب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

مذكـــــرة ماســـــتر

تقديم الطالب(ة): حمّزة قرطي

ميدان: لغة وأدب عربي

شعبة: دارسات أدبية

تخصص: أدب عربي قديم

يوميات ابن حمَّادوش الجزائري

أعضاء اللجنة والمناقشة

الاسم واللقب	الدرجة التعليمة	الجامعة	العضوية
د/ مـرزوق ابـو بكر	أستاذ تعليم عالي	جامعة عمار ثليجي بالأغواط	رئيسا
د/ محمد قريبيز	أستاذ تعليم عالي	جامعة عمار ثليجي بالأغواط	مشرف ومقرر
بن شاعة جلو ل	أستاذ تعليم عالي	جامعة عمار ثليجي بالأغواط	مناقش

السنة الجامعية

2023/2022

((رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا))

﴿سورة الكهف/الآية: 10﴾

شكر وتقدير

مصدقـــا لـقـــولـــه تعـالـى:

﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [سورة إبراهيم/ الاية7]

وكما قيل:

علامة شكر المرء إعلان حمـده فمن كتم المعروف منهم فما شكر

فالشكر أولا لله عز وجل على أن هداني لسلوك طريق الدراسة والتشبه بأهل العلم وإن كان بيني وبينهم مفاوز.

كما أخص بالشكر أستاذي الكريم ومعلمي الفاضل المشرف على هذا الدراسة الدكتور مُحَمَّد قريبيز، فقد كان حريصا على قراءة كل ما أكتب ثم يوجهني إلى ما يرى بأرق عبارة وألطف إشارة، فله مني وافر الثناء وخالص الدعاء.

كما أشكر السادة الأساتذة وكل الزملاء وكل من قدم لي فائدة أو أعانني بمرجع، أسأل الله أن يجزيهم عني خيرا وأن يجعل عملهم في ميزان حسناتهم.

حمزة قرطي

إهداء

اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن

اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت

بسم الله

أهدي هذا العمل الجبار إلى والوالدين الكريمين

وإلى إخوتي الأعزاء

وإلى كل عائلتي ومعارفي.

حمزة قرطي

ملخص الدراسة

ملخص الدراسة:

يتركز موضوع الدراسة على سرد أهم ما جاء به الرحّالة الجزائري عبد الرزاق بن محمد بن محمد بن حمّادوش الجزائري العاصمي نسبة إلى الجزائر العاصمة، التي ولد فيها في شهر رجب عام 1107هـ وكان ابن حمَّادوش متقدما على قومه معاصرا لعهد الاستنارة في أوروبا، فقد كان أقرب في تفكيره واهتماماته إلى العلماء الأوروبيين الناهضين، إلا أنه جاء بعد ظلام دامس أصاب الحضارة الإسلامية، نظم الشعر وكتب المقامة وقيد رحلاته، وألف في الطب والفلك والهندسة وعلوم البحار، تبنى البساطة في تدوين أحداث رحلاته مع تركيزه على تسلسل الأحداث فيها دون المراعاة إلى قواعد اللغة في كتابة، وكانت رحلاته ذات قيمة نادرة على اعتبار أنها جزء من التراث العربي الإسلامي والجزائري)، أما تاريخ وفاته فقد بقي مجهولا مابين 1197هـ / 1200هـ الموافق لـ 1783 م / 1786 م.

Résumé de l'étude en français:

Le sujet de la recherche porte sur la narration des choses les plus importantes que le voyageur algérien Abd al-Razzaq bin Muhammad bin Muhammad bin Hammadush al-Jaza'iri al-Asimi est venu avec, par rapport à la capitale, Alger, dans laquelle il était né au mois de Rajab en l'an 1107 de l'Hégire. Sa pensée et ses intérêts sont pour les savants européens en plein essor, mais il est venu après une obscurité complète qui a affligé la civilisation islamique. Ses voyages ont une valeur rare, étant donné qu'ils font partie de la Héritage arabo-islamique de l'Algérie. Quant à la date de sa mort, elle est restée inconnue entre 1197 hijri / 1200 hijri / 1783 miladi / 1786 miladi.

Summary of the study in English:

The research topic focuses on the narration of the most important things that the Algerian traveler Abd al-Razzaq bin Muhammad bin Muhammad bin Hammadush al-Jazaery al-Asimi came with, relative to Algiers, in which he was born in the month of Rajab in the year 1107 AH. In his thinking and his concerns to the rising European scholars, however, he came after a complete darkness that afflicted the Islamic civilization. In writing, his travels have a rare value as they are part of the Arab-Islamic heritage of Algeria. As for the date of his death, it remained unknown between 1197 hijri / 1200 hijri / 1783 miladi / 17

مقدمة

مقدمة:

إن الرحلات ثمرة لمختلف العلوم، وهي بمجموعها سجل حقيقي لمختلف مظاهر الحياة ومفاهيم أهلها على مر العصور، فالرحّالة وهو يطوي الأرض يقدم جملة من الملاحظات المختلفة أثناء رحلته، يشاهدها أو يسمعها أحيانا وينقلها في رحلته.[1]

وأنّ الرّحلة في طلب العلم مهمة جليلةٌ، وهى تُعتبر أحدى أهمَّ أسباب اكتساب العلم، كما أنها من مزايا أهل العلم في الإسلام، ولعل قصة رحلةُ سيّدنا موسى عليه السَّلام إلى الْخِضَر - عليه السَّلام - ليتعلَّم منه خير دليل، فكما في حديثٍ رواه الصحابيُّ أُبَيُّ بن كَعْبٍ - رضي الله عنهُ - عن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم أنه قال:"بينما مُوسَى في ملأٍ من بني إسرائيل إذْ جَاءَهُ رَجُلٌ فقال: أتَعْلَمُ أحداً أعْلَمُ مِنْكَ؟ قال مُوسَى: لا، فأوحى الله - عزَّ وجل - إلى مُوسَى بَلَى عَبْدُنَا خِضَرٌ،[2]" فسأل السَّبيل إلى لقاءه، فراح يضرب الأرض شوقا إلى رؤية من هو أعلم منه حتى نال منه التعب.

قال تعلى:

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا...﴾[3]

«سورة الكهف/ الآية 62»

والمستفاد من هذا الآية الكريمة أنَّ موسى عليه السَّلام - مع علو قدره في الرّسالة والعلم - حرص على الالتقاء بالخضر عليه السَّلام، وراح اليه وتحمل المشقة في رحلته، فلما لقي الْخِضَرَ؛ سَلَك معه مسلك المتعلّم مع معلمه، وسأله بكل أدب وتواضع.

قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا....﴾[4] «سورة الكهف/ 66»

مع أنهُ أفضلُ من الخضر وأرفعُ منه رتبةً، وأعلى منه رسالةً، ورُغم ذلكَ لمْ يمنعهُ فضلهُ، ورفعته عليه، إلا أنه قدم إليه لطلب العلم، وتحمَّل المشقة في ذلك، وكلُّ ذلك حرصاً منه على لقاء هذا العالِمِ، وحرصه على التعلم منه ما جهله والقصة مشهورة كما وردت في سورة الكهف.[5]

ولعّل في صحابة رسول الله ﷺ خيرُ مثل في تجوالهم القرى والبلدان، بحثًا عن سيرة رسول الله وأحاديثه والتحقق من صحتها وصحة روايته ومصداقية راويها، ومن بعدهم من التابعين والأئمة أعظم مثلا، فمنهم من رحلوا وارتحلوا مسافات بعيدة وتحملوا مَشقَّة وهول الطَّريق طلباً للحديث، وبحثاً عن أسانيد الأحاديث، بل عن إسناد الحديث الواحد، امتثالاً لأمر الله.

---

[1] بكاري عبد القادر، مقال " عبد الرواق ابن حمّادوش الجزائري والكتابة التاريخية من خلال الموسوعة لسان المقال في النبا النسب و الحسب و الحال"، موقع ابن باديس، سنة 2018

[2] حديث شريف، لأمام البخاري في صحيح، برقم102

[3] سورة الكهف الآية 62

[4] سورة الكهف الآية 66

[5] دكتور سيد عبد الماجد الغَوْري، رحلة إلى طلب العلم، معهد دراسات الحديث الشريف و العقيدة الإسلامية، بسلانجور في مالزيا، ط1، 1434ه/2013م، ص 114/107.

قال تعالى ﴿فلو لا نَفرَ مِن كُلّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةً ليتفقهوا في الذِين وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا اليه مْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ {سورة التوبة}[6]

وتحقيقاً لما حث عليه الرسول المعلم - عليه الصَّلاة والسَّلامُ - بقوله: «مَنْ سَلَكَ طريقا يلتمس فيه عِلْماً؛ سهل الله له طريقاً إلى الجنَّة»[7].

وقوله عليه الصلاة والسلام: «من خرج في طلب العلم؛ فهو في سبيل الله حَتَّى يرجع»[8]، وقوله عليه الصلاة والسلام: «من خرج من بيته ابتغاء العِلم؛ وضعت المَلائِكَةُ أجنحتها له رضاً بما يصنعُ»[9]

للرحلة قيم متعددة لما تحتويه من كثرة المعارف التاريخية والجغرافية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها، مما يدونه الرحّالة تدوين المعاين من جراء اتصاله المباشر بالطبيعة وبالناس وبالحياة خلال رحلته، وفي هذا الإطار، قدم الرحّالة العرب على مر العصور خدمات جلية في دراسة أحوال البلاد العربية من مختلف نواحيها، بحيث لا يقلل عن كثيرا من قيمة ما كتبه الرحّالة العرب، وبما أسهموا به عن طريق تقديم مادة علمية وأدبية ذات قيمة جلية في المجتمعات، وبهذه المميزات والخصائص للرحلات وموضوعها الشمولي الغني بما فيه من علم وأدب وخرافة وأسطورة، يمكننا اعتبار الرحلة نمط خاصا من أنماط الكتابة التاريخية، ومنهجا معينا من مناهج المؤرخين في العصر الحديث.[10]

وإذا تحدثنا عن الرحّالة الجزائريين فإن اختلاف العادات والتقالد هذا البلد ظاهر وواضح بشكل كبير في كتاباتهم، كون أن منهم من يحب التفاخر وآخر يحب نقل الحرفي للأحداث وغيرها من الأمور، ولعّل أبرزهم عبد الرزاق بن محمد بن محمد بن حمّادوش ورحلاته الكثيرة، أهمها تلك التي زار فيها بلاد المغرب الأقصى ـ المغرب وما جاورها ـ والتقائه بالعلماء فيها كأحمد الورززي وأحمد البناني وغيرهم من العلماء والمشايخ، والتي دونت أحداثها في كتاب لسان المقال النبأ النسب والحسب والحال والمعروف برحلة ابن حمَّادوش.

وتعتبر رحلة ابن حمَّادوش مادة علمية مميزة لسردها للأحداث والوقائع دون التغيير في شكلها أو مضمونه، وتجسيدها لعواطف المحسوسة لشعوب تلك الحقبة من الزمن وتصويرها في صورٍ واضحة ومبسطة للقارئ، وكون كاتبها غلّب المعنى على المبنى، اعتمد فيها على ما سمعه وما شاهده من علماء والشيوخ آن ذك.

كل تلك الأحداث والوقائع أثارت في داخلي التساؤلات والحيرة ودفعتني إلى إعادة فتح سجلات التي تتناول موضوع هذه الرحلة لتعمق فيها والإلمام بجميع جوانبها والتدقيق فيها، ومن أجل ذلك فان أهمية هذه الدراسة تكمن فيما يلي:

- المعرفة أكثر عن سيرة الذاتية لـ العالم ابن حمَّادوش.
- معرفة التامة بجميع مؤلفات وإنجازات هذا العالم.
- الدراية التامة بمحتوى كتاب"رحلة ابن حمّادوش".
- تأكيد بعض الحقائق والمعلومات حيل هذه الرحلة.

---

[6] سورة التوبة الآية 122
[7] حديث شريف، أخرجه الإمام البخاري، في الصحيح، برقم 78
[8] حديث شريف، أخرجه الترمذي، في الجامع، برقم 2646
[9] حديث شريف، أخرجه ابن ماجه، في مقدمة السنين، برقم 2648
[10] دكتور سيد عبد الماجد الغَوْري، مرجع سابق

- تقصي التزوير والكذب في الأحداث.
- التأكيد على القيمة العلمية للكتاب.

هذه جملة من التساؤلات التي سنحاول الإجابة عنها في بحثنا معتمدتين على النهج التاريخي في ذلك وفقا للخطة التالية:

- ✓ مقدمة: تشتمل على إحاطة بموضوع الدراسة وطرح مجموعة من التساؤلات التي من شأنها نبش الحقائق والتأكد من صحتها من عدمها.
- ✓ الفصل الأول: يبتدئ بتمهيد قصير عن ابن حمَّادوش يليه مبحثين يشتملان على ثلاثة مطالب لكل منهما بالشكل الأتي:
  - المبحث الأول بعنوان: تعريفا بابن حمَّادوش به ثلاثة مطالب، الأول عن تسميته والثاني عن مولده ووفاته والأخير يشتمل على بعض من حياته الأسرية وصدقاته وخصومه.
  - المبحث الثاني بعنوان تلقنهُ العلم ومؤلفاتهِ ويشتمل على ثلاثة مطالب الأول بعنوان شيوخه وتلامذته، أما المطلب الثاني فيحتوى على أهم كتبه ومؤلفاته وفي مطلب الثالث نجد نبذة عن مكتبة ابن حمَّادوش.
- ✓ الفصل الثاني بعنوان رحلة ابن حمَّادوش ومضمونها ويشتمل على مبحثين يهما ثلاثة مطالب بشكل الأتي:
  - المبحث الأول بعنوان"مفاهيم عن الرحلة" ويتناول ثلاثة مطالب عن مفاهيم الرحلة، ومميزاتها، وتقسيماتها.
  - المبحث الثاني بعنوان البناء الفني للرحلة ويتناول اللغة والأسلوب، منهجية المعتمدة في تدوين أحداثها، وأسباب اعتماد الوصفي.
- ✓ خاتمة: عبارة عن ملخص شامل للبحت والتطرق إلى أبرز ما جاء به من نتائج ومعلومات.
- ✓ فهرس المحتوى.
- ✓ قائمة المصادر والمراجع.

ولنسير في نهج هذه الخطة أعلاه واجهنا الكثير من المصاعب أبرزها قلت المصادر وندرتها ونقص في المعلمات التاريخية خاصة المفقدة منها وغيرها من الصعوبات الدراسة العلمي.
لكن بتوفيقٍ من الله تمت هذه المجهدات الجبارة وكُللت بالنجاح إلى حد ما.

الفصل الأول:

حياة ابن حمّادوش وعصره

تمهيد:

ابن حمَّادوش رحّالة جزائري عاش خلال القرن 12م أحد الخامات البارزة في الجزائر على مر العصور، وعصر حقبة الدايات وحتى الباشاوات ـ حقبة الحكام العثمانيين ـ في مسقط رأسه الجزائر، وأحد من شهد الحرب الأهلية في المغرب الأقصى، بل كاد يموت فيها وصاحب كتاب الرحلة ابن حمَّادوش"لسان المقال"والذي هو موضوع دراستنا، بحيث تطرقنا في هذا الفصل للأفكار التالية:

- ✓ المبحث الأول: التعريف بابن حمَّادوش
  - المطلب الأول: اسمه ونسبه.
  - مولده ووفاته.
  - أسرته وصداقاته.
- ✓ المبحث الثاني: تلقنه ومؤلفاته
  - شيوخه وتلامذته.
  - كتبه ومؤلفاته.
  - مكتبة ابن حمَّادوش.

المبحث الأول: حياة ابن حمَّادوش وعصره

كان ابن حمَّادوش أحد معاصري عصر التنوير في أوروبا، حيث كان أقرب في تفكيره واهتماماته إلى علماءها الناشئين، إلا أنه جاء بعد ظلام دامس أصاب الحضارة الإسلامية، لذلك اعتبره بعض الباحثين (كلو سيان لو كلير) أحد آخر ممثلي الطب العربي متقدمًا على قومه في فكره وكتابته كالشعر والمقامة في أسفاره، كما كتب في الطب والفلك والهندسة وعلوم البحار وغيرها، وكانت رحلاته المشهورة ومسماه "بلسان المقال" ذات قيمة نادرة كونها جزء من التراث العربي الإسلامي والجزائري ومصدر للمعرفة حول الظروف الاجتماعية والثقافية والسياسية في ذلك العصر.

المطلب الأول: تسميه ونسبه

يعرّفه أبو القاسم سعد الله فيقول: "عبد الرازق بن محمد بن أحمد بن حمادوش جزائري الدار والمنشأ، أشعري عقيدة، مالكي مذهبا، شريف نسبا.[11]

هو أبو الحسن عبد الرزاق بن الحاج محمد بن أحمد المعروف بابن حمَّادوش بفتح الحاء المهملة والميم بعدها، والبعض يذكر الميم مشددة، جزائري الدار مولدا ومنشأ وموطنا، وهو بن علي المالكي الجزائري ولأن اسم أبيه محمد واسم حمادوش مشهور بين أهل الجزائر، وما زال متداولا في عدة أماكن من الوطن إلى الآن، ويأتي في عدة مواضع من رحلته أن نسبهم يعود إلى الخليفة الصحابي على بن أبي طالب، أشعري عقيدة مالكي المذهب شريف نسبا، مؤرخ، نسابة، وطبيب.[12]

وعند زواجه الأول صاهر عمه الذي زوجه بنته البكر واسكنه في داره أما زواجه الثاني فقد تزوج ثيبا هي ابنة أمين الصفارين (النحاسين)، وكان لابن حمَّادوش ولدان على الأقل من زوجه الثانية مات أحدهما صغيرا، ولا ندري إن كان له أطفال من زواجه الأول.[13]

نسبة إلى الجزائر العاصمة ولد بالجزائر سنة 1107 هجرية 1695 ميلادية من أسرة بسيطة كانت تعمل في الدباغة ولا توجد معلومات عن سنة ومكان وفاته.[14]

لكن بعض المراجع تشير ظنيا إنه تجاوز التسعين سنة، حيث اشتغل بقراءة الكتب والعلم، اشتهر بعلم النبات والطب والصيدلة والفلك والمنطق والنحو والأدب وغلبت على تأليف ه العلوم التجريبية عاصر الكثير من الأحداث في القرن الثامن عشر منها احتلال الأسبان لمدينة وهران وثورة أحمد الريفي المغربي وفرار المغربي وقراره إلى الجزائر وقد شاهد ثورة احمد الريفي عيانا وروى إحداثها بكثير من التفصيل في رحلته.

[11] أبو القاسم سعد الله "مقدمة التحقيق"، رحلة ابن حمَّادوش الجزائري " لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، المؤسسة الوطنية للكتاب،سنة 1983، ص29

[12] عبد الرزاق ابن حمَّادوش الجزائري، لسان المقال في النسب والحسب والحال، عالم المعرفة، الجزائر2011، ص 241

[13] مرجع سابق "مقدمة التحقيق"، ص29

[14] بتصرف "لسان المقال.."، ص 237

المطلب الثاني: مولده ووفاته ابن حمَّادوش

ولد عبد الرزاق ابن محمد بن محمد بن حمّادوش بالتشديد أو بالتخفيف أو حمادوش الجزائري في شهر رجب عام 1695م 1107هـ بمدينة الجزائر، وهو ما يذكره المؤلف بنفسه، بقوله: "لم ألأجه أحمد عام 1107 سبعة ومائة وألف".[15]

وفي هذه السنة في رجب كانت ولادتي،[16] كما يشير في العديد من المناسبات إلى ذلك حينما يُذكر بسنه، قوله في إحداها إلى يوم الخميس ثالث صفر الموافق ثالث عشر فبراير تمت لي خمسون سنة عجمية وافتتحت سنة 51 عجمية من ولادتي، وفقني الله للهدى.[17]

يذكر أبو القاسم سعد الله ومن ترجم لابن حمَّادوش أنه عاش إلى حوالي تسعين سنة، وأنه توفي في مكان وتاريخ مجهولين، ولكن أغلب الظن أن المنية وافته وهو بالمشرق بين (1197هـ / 1783م، و1200 هـ / 1786م.).

[15] مرجع سابق" لسان المقال"، ص 237.
[16] مرجع سابق" ابن باديس".
[17] شارف محمد، الإجازة في رحلة ابن حمَّادوش، مخبر الدراسات الإفريقي للعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة ادرار، الجزائر سنة 2021،

المطلب الثالث: أسرته وأصدقائه وخصومه

اسم أبوه هو حمّادوش وهو اسم مشهور بين أهل الجزائر وما زال متداولا إلى الآن من عائلة متوسطة الحال من طبقة الحرفيين ذلك أنه ذكر في رحلته بعض الحرف كالدباغة والحرارة والصفارة والتجارة، متصلة به أو بعائلته، يقول في عقد زواجه الأول: «الحمد الله تزوج على بركة الله وتوفيقه المكرم الشاب عبد الرزاق بن الحاج محمد بن حمّادوش مخطوبته فاطمة بنت عمه، المكرم الحاج أحمد الدباغ». ويقول في عقد زواجه الثاني: «أنكحها إياه بما سمى فيه شقيقها المكرم السيد أحمد أمين جماعة الصفارين».

أما الحرارة والتي تشير إلى الاشتغال بالحرير، فقد وردت في عقد زواج وعند زواجه الأول من عمه الذي زوجه ابنته البكر واسكنه في داره.

أما زواجه الثاني فقد تزوج ثيبا هي ابنة أمين الصفارين (النحاسين)، وكان لابن حمَّادوش ولدان على الأقل من زوجه الثانية مات أحدهما صغيرا، ولا ندري أن كان له أطفال من زواجه الأول، ولم يكن ابن حمَّادوش سعيدا مع زوجه الثانية ولا مع أسرته الباقية كأمه وأخته لانشغاله بالكتب والعلم من جهة ولفقره من جهة أخرى.

وأخته التي اقترنت بأمين الحراريين، ومن خلال رحلته نلمح اشتغاله بالتجارة، رغم أنه لم يستفد منها كثيرا، كما أنه لم يتول أي وظيفة حكومية يمكن أن تضمن له عيشا رغيدا كما كان يفعل غيره من العلماء.

ولم يذكر ابن حمَّادوش من أصدقائه عددا كبيرا، بل انه ذكر في إحدى الذي دفعه إلى الأسفار والمغامرة هو هجران الأصدقاء وتقلب أحوال غير أننا نجده يشير إلى المفتي محمد بن حسين الذي عزاه في ولده، وكان أحمد بن عمار من أصدقائه المقربين حتى قال ابن حمَّادوش عنه بعد امتناع بعض علماء الجزائر على الشهادة له حسدا منهم ((حتى انتدب منهم من خصه الله بالتوفيق، وغسل قلبه من الحقد بالتحقيق... الأديب ذو القلب الناطق والقول الصادق، كما جاء في شهادة ابن عمار له ما يدل على هذه الصداقة بينهما إذ وصف فيها ابن حمَّادوش بأنه ((محبنا الأديب، والحبر الأريب، سيدي عبد الرزاق بن حمّادوش)).

وبالإضافة إلى شهادة ابن عمار له شهد له أيضا عبد الرحمان بن الشارف المازوني وأبو القاسم بن يوسف الحسني وعبد الملك البرنوصي السليماني، ولا شك أن هؤلاء كانوا من أصدقائه وليسوا من حساده، ونعتقد أن تراث ابن حمَّادوش يحتوى على أسماء أصدقاء وخصوم آخرين له.[18]

[18] الدكتور أبو القاسم سعد الله، ابن حمَّادوش الجزائري حياته وأثاره، الطبيب الرحالة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1982، ص 32

من سيرته أن خصومه لم يكونوا كثيرين لأنه لم يتول وظائف إدارية تجعله محط الحسد والغيرة أثناء توليه ومطمح لشاته والتشفي بعد عزله، فقد كان فيما بد إنسانا بسيطا في حياته، بعيدا عن مراكز النفوذ والسلطة.

ولذلك لم يذكر من العلماء الذين وقع بينه وبينهم مغاضبة إلا المفتي ابن علي، فقد كان ابن حمَّادوش ذات مرة في دار شيخه ابن ميمون فدخل عليهم ابن علي فلم يقم له ابن حمَّادوش تعظيما فغضب المفتي من ذلك وخرج.

وقد هجاه ابن حمَّادوش وافتخر عليه بشرفه ونسبه العربي الهاشمي لأن ابن علي كان من أصل تركي، وقال إنه وإن حاز الدنيا والجاه، (يعنى منصب الفتوى) فإنه لا يرقى إلى مكانته هو في الشرف والنسب، واتهم ابن علي بأنه معجب بنفسه وأنه يستحق كل مقت وبغضاء ولعل ابن علي كان يكيد لابن حمَّادوش كما كان يكيد لمحمد بن نيكرو المفتي المالكي المعاصر له.

كان ابن حمَّادوش أيضا على علاقة غير ودية مع علماء الريف أو البادية، كما كان يحط من شانهم ويعتبرهم اقل العلم من بين علماء الحاضرة، وقد ناقش بعضهم وسخر منهم وأظهر علمه عليهم، وذكر مرة أنه تذاكر مع بعضهم في شأن العلم. وزل به لسانه أثناء ذلك فقال إن علماء البادية (يغلطون في أنفسهم).[19]

وان علمهم أقل من دعوتهم وإنهم يدعون الوصول إلى قمة العلم، فإذا جاؤوا الحاضرة لا يحسنون القراءة مع علمائها مبتدئين، وبرر ذلك باشتراك علماء الحضر في العلوم وتوفر الكتب لديهم وتعدد المشايخ والإخوان ولكن العالم البدوي الذي يتحدث عنه أوقفه وتحامل عليه، والواقع أن بعض ما جرى لابن حمَّادوش من هذا النوع ليس من باب الخصومة والمتحاسدة وإنما هو من باب الاختلافات العلمية نتيجة التفاوت في درجات الذكاء والاطلاع.

[19] الدكتور أبو القاسم سعد الله، الطبيب الرحالة، مرجع سابق، ص32

المبحث الثاني: من التعلم إلى التعليم والتأليف

إن ثقافة ابن حمَّادوش كانت هي ثقافة معاصريه ولكنه انفرد عنهم بالتخصص في جانب الدراسة العلمي من هذه الثقافة ، فبينما درس مثلهم العلوم الشرعية واللغوية وأخذ العلم مثلهم أيضا قراءة وإجازة ، نجد ابن حمَّادوش يميل بطبعه إلى ما يسمى اليوم بالعلوم الرياضية والطبية وما شكلها ، فهو صيدلي وطبيب ومحاسب وفلكي وفرضي ومنطقي ، وقد ألف في هذه العلوم كما عرفنا في كتابنا عنه ، وكما تشهد كتبه التي ذكرها في رحلته ولكنه لم ينقطع تماما عن تيار العصر ، فقد كان مهتما أيضا بالفقه والنحو والتصوف والأدب والتاريخ ، وتشهد رحلته أنه كان رحالة كثير الاهتمام بطبائع الناس وغرائب الأشياء ، دقيق الملاحظة ، ولو عثرنا على آثاره الأخرى أو بعضها لتكشفت لنا منه شخصية قليلة الوجود في ذلك العصر..[20]

[20] ابو القاسم سعد الله، أوليات الرحلة، جامعة الجزائر، سنة 1982م

المطلب الأول: شيوخه وتلامذته

تتلمذ عبد الرزاق بن حمادوش على يد الكثير من الشيوخ في بلده الجزائر منهم الشيخ محمد بن ميمون كما عاصر المفتي الشاعر ابن على وعبد الرحمن الشارف أحمد بن عمار صاحب نحلة اللبيب وأحمد الزروق البوني وممن قرأ عليهم وأجازوه في المغرب الشيخ محمد بن عبد السلام البناني الفاسي وأحمد الورززي التيطواني وأحمد السرائري وأحمد بن المبارك، أما من تونس فلم يذكر من شيوخه إلا الشيخ محمد زيتونة أللذي يسميه شيخنا والشيخ محمد الشافعي أللذي التقى به في الجزائر ورغم انه درس على طريقة أهل زمانه غير انه كان منصبا أكثر على الكتب العلمية ومن العلماء اللذين درس لهم ابن سينا والانطاكي والقلصادي وابن بيطار وإقليدس وغيرهم من العلماء المسلمين واليونان.

أما عن تكوينه العلمي الأول، فليس هناك - من خلال الوثائق المتوفرة من خلال الوثائق المتوفرة - شيء يذكر، ومع ذلك فليس مستبعدا أن يكون له شيوخ في العلوم المتصلة بالعلم الشرعي وهي العلوم يتعلمها الصبية في غالب الأحيان، كما أنه ربما يكون قد اشتغل مع والده بالتجارة، التي يبدو أنه قد سافر لأجلها عدة مرات فيما بعد مع ذلك فقد بقي يعاني العوز والفقر، مما خلق له العديد من المشاكل العائلية.

أما بالنسبة للجانب ألتحصيلي، فقد تتلمذ ابن حمَّادوش في مدينة الجزائر - على ما يبدو - على محمد بن ميم صاحب التحفة المرضية، هذا الأخير الذي كان قاضيا للمواريث، وهو الذي أعلن زواج الباشا إبراهيم رغم أنه خارج اختصاصه[21]، وما يهمنا هنا هو أن ابن حمَّادوش قد تدارس مع شيخه ابن ميمون بعض المسائل والكتب الأدبية والتاريخية والعلمية.

يقول مثلا: "وفي يوم الاثنين ثامن ربيع الأول الموافق لتاسع أبريل بعث لي شيخنا ابن ميمون بعد العصر تذاكرنا في داره إلى غروب الشمس، مسائل علمية من أدب وغيره"[22]، ويقول في موضع آخر - في جمادى الأولى من عام 1158هـ - «أول يوم منه ابتدأت مع شيخنا ابن ميمون، في داره بعد سرد الكردبوس سرد عيان مسائل ابن حجة في الأدب، وكان يوم الاثنين الموافق عشرين ماية (ماي)، وفي يوم الأحد تاسع عشر جمادى الأخيرة موافق سابع يوليه ابتدأت على شيخنا ابن ميمون سرد قصيدة مالك بن المرحل، نظم فصيح ثعلب في اللغة، وهي من بحر الرجز، وعدد أبياتها ألف وثلاثمائة ونيف... وفي يوم الأربعاء عرض علي الشيخ الإتقان في علوم القرآن»..[23]

وللوهلة الأولى يظهر للمطالع لرحلة ابن حمَّادوش اهتمامه بالعلوم العقلية، أو علوم النصارى خلافا لما كان عليه سائر علماء ذلك الوقت، كالمنطق والحساب والطب والفلك، وما إلى ذلك، رغم أنه تدارس مع ابن ميمون كتبا في الأدب والتاريخ والفقه إضافة إلى صحيح البخاري هذا الأخير الذي يعتبر عمدة كتب الحديث في المغرب العربي قراءة وختما، فابن حمَّادوش لم يحدث قطيعة نهائية مع ما اعتاد العلماء قراءته، لكنه شذ عليهم باهتمامه العلمي، وابتعاده عن الإغراق

[21] أنساعد سمير الرحلة إلى الشرق في الأدب الجزائر، دراسة في النشأة و التطور و البنية، دار الهدى الجزائر، سنة 2009، ص105

[22] أنساعد سمير، الرحلات الحجازية في الأدب الجزائري من القرن الحادي عشر إلى الثالث عشر، الوكالة الإفريقية للإنتاج السينمائي و الثقافي، الجزائر،ط1، سنة 2011 ، ص86

[23] بالحميسي (مولاي)، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر،ط2، سنة 1981، ص 76

في التصوف، فقد درس القلصادي وشرح السنوسي على الحباك والقانون والنجاح لابن سينا، وشرح ابن رشد على منظومة ابن سينا، ومقالات إقليدس، وكتاب تاريخ الدول للملطي في أخبار العلماء والأطباء.

وقد نقل من هذا الكتاب في الرحلة، وأعجب بصاحبه، ثم كتاب روضة الأزهار للجادري وشروحها، وكتاب السطي على ذوات الأسماء والمنفصلات، وطالع تأليف ا في علم البونية لعبد الرحمن الفاسي، وكتاب الطلاسم لابن البناء.[24]

كان ابن حمَّادوش كثير الترحال، فقد زار كلا من تونس ومصر والحجاز، وأخذ عن بعض الشيوخ هناك، وذلك عبر حجاته الثلاث الأولى كانت سنة 1125 هـ / 1713م، والثانية سنة 1130هـ/ 1718م، أما الثالثة والأخيرة فسنة 1161هـ/ 1743م، ولعل أبرز شيوخه هناك محمد زيتونة المنستيري.[25]

أما في المغرب، التي زارها مرتين على الأقل، سنة 1145هـ/1756م وسنة 1156هـ/1743م الأغراض تجارية، فقد زار فيها كلا من تطوان، ومكناس، وفاس، والتقى عددا من الشيوخ ذكرهم في رحلته وحضر دروسهم، ومنهم من أجازه، كالشيخ أحمد البناني الفاسي المتوفى سنة 1163هـ، والذي كان يدرس بجامع زاوية أحمد بن ناصر[26].

والشيخ أحمد بن محمد الورززي المتوقي سنة 1179هـ / 1766م، الذي كان يدرس بجامع لكاش بتطوان، وقد سمع منه ابن حمَّادوش التفسير ومختصر خليل وغيرهما، وناقشه في مسألة أفضلية الملائكة أو الرسل.

كما التقى ابن حمَّادوش في تطوان بأحمد السرايري مبعوثا من البناني المذكور، فكتب له إجازة ذكرها في رحلته، كما ذكر إجازتي البناني والورززي.[27]

إضافة إلى فهرس البناني، مما يبين أن رحلة ابن حمَّادوش إلى المغرب لم تكن تجارية فقط بل كانت علمية بالدرجة الأولى، ذلك أنه كان حريصا على تدوين كل ما قرأه على الشيوخ من عناوين الكتب والمؤلفات وحتى بعض الفهارس ، التي كان يذكرها بنصها الكامل، مثلما فعل مع فهرس السرايري، وفهرس الصباغ، هذا الأخير الذي كان تلميذا للشيخ زيتونة المذكور سالفا.

وقد كان ابن حمَّادوش حريصا على تعلم كل ما تعلق بميوله الشخصية، من ذلك أنه أخذ الطب على عبد الوهاب أراق، الذي انتهت إليه رياسة الطب في زمنه، وبلغ في الصناعة مكانة عالية، وكانت الملوك تحله وتعظه، وكان إلى معرفته بالطب أبان بارعا وريا متمكنا وقيها نظارا.

وألف في الطب العلمي والطب البشري تأليف منها أرجوزة ابن سينا المعروفة في الطب، وأرجوزة في حب الافرنج، وهو الداء الزهري المعروف، وكتاب هز السمهري على من نفي

[24] أبو عبد الله محمد بن إسماعيل،صحيح البخاري، دار المعرفة، بيروت، ط2، سنة 2007

[25] محمد بن عبد الله، رحلة ابن بطوطة في غرائب الأمصار و عجائب الأسفار الجزء الأول و الثاني، دار الفكر، بيروت، ط1، ص 85

[26] بن قينة عمر في الأدب الجزائري الحديث تأريخا و أنواع و قضايا و أعلماء ديوان المطوعات الجامعية، الجزائر،سنة 1995، ص46

[27] بلعابد عبد الحق، جيرار جنيت من النص إلى المناص، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، سنة 2008، ص59

عيب الجذري، وله تعليق على كتاب النزهة لشيخ الأنطاكي، وغير ذلك، وتوفي رحمه الله عام (1159هـ)[28].

وقد ذكر ابن حمَّادوش أنه أخذ شراب المصطكي على الحكيم المذكور، وقد وصف هذا الشراب بأنه من أفخر الأشربة، كما تعلم في الجزائر الأعشاب، حيث يقول في هذا الصدد: «فالحمد لله على ذلك، فإن الأعشاب المقيدة في تأليف ي كلها معروفة عندي، فاليوم، والحمد لله، أنا عشاب وصيدلاني وطبيب في بعض الأمراض».[29]

مما ذكر يتضح لنا اهتمام ابن حمَّادوش بالعلوم التجريبية، والتي مارسها وتعلمها بالفعل، وألف في بعضها تأليف ربما تكون صغيرة الحجم، وربما تكون اختصارا لأعمال سابقة ومع ذلك فإن ما قام به كان مجهودا محمودا، ذلك أنه تحدى الفقر، كما تحدى علماء عصره، الذين لم يخرجوا عن العلوم المتصلة بالفقه والحديث والمشروح والمتون، وكانوا يتوجسون خيفة من علوم النصارى، وقد ذكر الدارسون لابن حمَّادوش أنه عاش إلى أن بلغ التسعين أو يزيد، رغم أنهم لم يحددوا زمنا لذلك ولا مكانا، وقد ذكر في رحلته مجموعة من التأليف ، التي لا نعرف منها إلا أسمائها، ذلك أنها مفقودة، باستثناء الجزء الثاني من رحلته المسماة: "لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال"، ومعجمه "كشف الرموز في بيان الأعشاب".

[28] بن قينة عمر، الخطاب القومي في الثقافة الجزائرية، منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق 1999، ص 43
[29] بن قينة عمر، الشكل و الصورة في رحلة الجزائرية الحديثة، دار الأمة للطباعة و النشر والتوزيع، الجزائر، ص 693

المطلب الثاني: ملاحظاته وتجاربه العلمية

ارتأينا هذا المقام الحديث عن تأثر ابن حمَّادوش بالعلوم العقلية، وممارستها دراسة وتحريه ومناقشته لها، وذلك انطلاقا من بعض الأمثلة المبثوثة في كتابيْه المطبوعين: لسان المقال (وهو رحلته المغربية)، وكشف الرموز (وهو معجم الأعشاب الذي سنخصص له حيزا في هذا المقال)، فقد ذكر هو نفسه بعض الملاحظات الدالة على ما ذكرنا، فقد كان يسجل كل ما تقع عليه عيناه سواء في تنقلاته بين تطوان ومكناس وفاس، أو عبر الممارسة الفعلية والتجربة الشخصية فضلا عن مطالعته الكتب المتعلقة بهذا النوع من العلوم، فقد درس القّلصادي وشرح السنوسي على الحباك، والقانون والنجاح لابن سينا، وشرح ابن رشد على منظومة ابن سينا ومقالات إقليدس، وكتاب تاريخ الدول للملطي في أخبار العلماء والأطباء، وقد نقل من هذا الكتاب في الرحلة، وأعجب بصاحبه، ثم كتاب روضة الأزهار للجادري وشروحها. وكتاب السطي على ذوات الأسماء والمنفصلات، وطالع تأليف ا في علم البونية لعبد الرحمن القاسي، وكتاب الطلاسم لابن البنّاء [30].

فقد ذكر بعض الملاحظات التي تدل على استعداده العلمي، ورغبته في نقل ما لاحظه، وجعل بعضا منه في خانة الغرائب، إما لأنه غير مألوف لديه، أو لأن أهل تلك المنطقة يختلفون في عاداتهم عن عادات، الجزائريين من ذلك مثلا أنه لاحظ سكان المناطق الموجودة قرب مرج من المروج بين تطوان ومكناس يحصدون في شهر أبريل، ونحن لا تهمنا المعلومة بقدر ما يهمنا انتباه ابن حمَّادوش لها، لدرجة أنه سجلها في رحلته، التي تشبه اليوميات أو المذكرات ذلك أنه كان حريصا على الزمان أكثر من حرصه على الأحداث والمكان، فتجده يذكر اليوم، وما يوافقه من التاريخ الهجري والميلادي، يقول: «من غريب ما رأيت في هذا الطريق قرب المرج الطويل، وجدتهم يحصدون الشعير في خامس أبريل، وفي هذا المرج السمك تسعة بوري مقلو في ودكة موزونة»[31]

ومن الملاحظات الهامة التي سجلها في نفس المقام، ما رواه عن بعض الطيور، وكيفية بناء أعشاشها فوق الماء، مما يدل على اهتمام ابن حمَّادوش بكل ما يتصل بحياة الحيوانات والنباتات، والذي يظهر جليا في كتابه "كشف الرموز" وهذه عبارته «ومن غريب ما رأيت أني رأيت غرتين كل واحدة في أفحصها فوق الماء، تحضن بيضها، فلما بلغت المبيت شهد أهل الحي كلهم كبيرهم وصغيرهم، أن الغر وبوغطاس وطيور ـ كذا ـ آخر لا يلدون إلا فوق الماء في الموضع الذي يكون عليه كقطعة حصير من الكلام، ثم يبنون به أفحوصهم، ويبيضون، ولا يفرخون فوق الماء، وإن مسه الماء، فسد فإنها تبنى بناء صحيحا، وأتونا ببيض الغر، عظمه كبيض الدجاج، ولونه كلون بيض الحجل، إلا أنه أشد بياضا من بيض الحجل، وفيه نقط يمس بيضهم سود»[32].

[30] أبو القاسم سعد الله، الطبيب الرحالة ابن حمَّادوش الجزائري، عالم المعرفة، الجزائر 2011، و كذا في قسم الدراسة لرحلة لسان المقال، أبحاث و أراء في التاريخ الجزائر، ج1 بعنوان عبد الرزاق ابن حمَّادوش ورحلته لسان المقال، و هو منشور في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ج2، م 05 ابريل 1975، و أبحاث و أراء، ج4 بعنوان رسالة في الكرة الفلكية لابن حمَّادوش، في تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ص29

[31] ابن حمَّادوش، لسان المقال، ص73 و التأليف المذكور هو الجوهر المكنون في بحر القانون

[32] ابن حمَّادوش، لسان المقال، ص 20 و 73

كما أنه استغرب من أن السكان في هذا المكان لازالوا يعتمدون على بعض النباتات في بناء القوارب، التي يستعملونها للصيد، أو للعبور من ناحية إلى أخرى من المرج، فالقوارب تصنع من سيقان البردي، «ومن غرائب ما رأيت أن في هذا المرج قوارب يصطادون بها السمك والطير والبيض، ويتعدون عليها من ناحية إلى الآخر كذا، ويحملون عليها أحمال الزرع وغيره، وهي من حزم البردي يعقدون حزمة بحبال الدوم الرقاق ويجعلوها وسطا، ويعقدون حزمتين يجعلون من كل ناحية واحة عالية يمينا وشمالا، ووسطها منخفض، ويحملون ذلك بالربط من، مقدمها ويشدون ربط الكل ويركب فيها، ويمسك في يده عودا طويلا يكت به ولا يقذف».[33]

فابن حمَّادوش هنا فصل في كيفية صنع القوارب من البردي (وضع رسما تخطيطيا)، وما يهمنا هنا هو هذا التفصيل الذي يدل على الملاحظة العلمية، وليس في صنع القوارب من نبات البردي.

كما سجل ملاحظة أخرى متعلقة بنوع من أنواع الأشجار، كدليل آخر على أن رحلته كانت علمية بالأساس، ولم تكن مجرد بيع سلعته فها هو يصف لنا شجر الدلم بقوله: «وهو شجر يطول جدا، وورقه أكبر من ورق الدردار، وصفته بين ورق البلوط وورق الدردار، وله نمرتان أحداهم عفص كبير أكبر من العفص التركي، والأخرى بلوط حلو يؤكل، سبحان من هو على كل شيء قدير»[34]. فهو هنا يعقد مقارنة بين أو راق الأشجار، إضافة إلى ذكر حتى أصناف الثمار، وأحجامها، وكل ذلك نابع من الملاحظة والتجربة الشخصية.

وما قيل بأن الطيور والنباتات والأشجار ينسحب على الحيوانات التي لقيت انتباه ابن حمَّادوش؛ فيصوغ لنا ما لفت انتباهه عندما كان برفقة عدد من الحمارين حيث يقول: «فبتنا في دار أقبع في بستان تين قريب من الدشرة، وكنا اشترينا كبشا فطبخه الحمارون، وأكلنا وحمدنا الله، وبقي هناك فضلاته، ففي نحو مضى من الليل ربعه جاءت هرة تأكل مما هناك فراها بعض الحمارين وكانت جماعة قليلة فرماها بمكحلة، فأردها بحبتها وأخذها وذبحها، وسلخها فكانت كلها شحما من شدة السمن وأمعاءها كامعاء بني أدم واحد وليست هي وحشية، وإنما هي انسية في الغالب، فطبخوها وأكلوها ونحن ننظر»[35].

---

[33] " لسان المقال"، ص74

[34] مرجع سابق، ص

[35] هارت جورج، الحضارة المصرية القديمة،هالة ترك حسانين، فضة مصر للطباعة و النشر و التوزيع، ط1، سنة 2007، ص 38 كما وردت في مادة بردي، في كشف الرموز، الجزائر، ص 40، وط بيروت، ص 78 وص 22

أما فيما يخص التجارب التي أجراها ابن حمَّادوش فنجدها مبثوثة هنا وهناك، سواء في رحلته أو في معجمه، وهي تجارب تنم عن استعداد ورغبة في التعلم والمعرفة بالمعاينة، وعدم الاكتفاء بالمطالعة، ذلك أنه لا يكاد يذكر تأليف ا من مؤلفاته المذكورة، إلا بعد قيامه بتجربة تتعلق به كرسم خارطة، أو تركيب أشياء، أو قنبلة، فهو يحاول أن يجرب كل ما تلقاه عن شيوخه، وسنضرب بعض الأمثلة، من ذلك مثلا، مداواة نفسه بالكينكينة، بعدما أصابته الحمى: « ...ثم منعني المرض، كانت أصابتني حمى شديدة، فلم أستطع القراءة، حتى ألهمني الله أن أشتري ثلاثة أمان من الكين كينه، فاشتريتها بستة موزونات، فلما أخذتني واشتد بي بردها ضُحاء يوم السبت، سابع ربيع الأولى، دققت الثمن الأول وشربته في فنجال ـ كذا ـ قهوة مع البن، فلما استقر في بطني أمسكت الأعضاء كذا كلها عن الاختلاج إلا عرقا واحدا في يد ـ كذا ـ اليمنى بقي يختلج اختلاجا يسير ـ كذا ـ فلما شربت الثمن الثاني انقطع من كل عضو، ثم شربت الثمن الثالث فلم يبق بي ألم منها»[36].

وفي"كشف الرموز أو رد ابن حمَّادوش ذكر الكينكينه والتي تسمى"سليخة"، ففي هذه المادة يذكر التجربة السابقة، حيث يقول: «هي قريبة من الدارصيني حال أخذها بردها في الحين، وكيفية ذلك أن يدق درهم فإذا ابتدأته الحمى شربه بالقهوة، ثم بعد ساعة يشرب درهما كذلك، وبعد ساعة أخرى يشرب الثالث، فإنها تنقطع من وقتها بإذن الله، وقد جربتها مرارا، ولا تعرف عندنا بالسليخة بل كنكينة بدلها دارصيني وشربتها درهم»[37]، فالمؤلف هنا يصف الدواء بناء على تجربة، قام بها مرات عديدة.

كما أنه يروي بشيء من الفخر، تركيبه لمعجون أطلق عليه اسم معجون الصلاح، إضافة إلى تحضيره لشراب المصطكي وفي ذلك يقول: «وفي يوم الخميس عشرين من جمادى الثانية، موافق تاسع عشر پوليه ركبت معجون كذا على منوال معجون الفلاسفة لكن لم اسبق به وسميته معجون الصلاح ومعجون الواحد، لأن عدد وزنه يجمعها وأحد وفي سابع وعشرين طبخت شراب المصطكي، وهو من أفخر الأشربة، أخذته عن الشيخ الحاج عبد الوهاب أدراق، أخذه عن أشياخه عن الشيخ محمد السنوسي في شرح حديث المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء، وأصل كل داء "البردة المروي عن النبي ﷺ، وهذا الشراب يقوم في منافعه مقام الخمر».[38]

كما أنه يصف لنا اهتمامه بعلوم أخرى غير الطب، فها هو ذا يحاول عمل خارطة تتعلق برياح البحر، ويذكر أن هذا الأمر في غاية البساطة، وما يهمنا هنا هو تعدد مداركه العلمية، بحيث لم تقتصر تجاربه على مجال معين دون غيره، يقول: «وفي يوم الاثنين ابتدأت عمل كارطة رياح البحر، وهي صنعة هندسية سهلة المأخذ تدور دائرة بقناص بلا حبر، ثم تخط من كل ناحية من نواحيها الأربع خطا أسود، تصير الدائرة خطوطا مربعة، ثم تقسم الدائرة على اثنين وثلاثين قسما متساوية، وتخط خطوطها بعد أن تجعل مركزها دائرة ومركز كل قسم كذلك، وتخط من كل إلى الأخرى خطا، تكون».[39]

---

[36] لسان المقال، ص 99

[37] ابن حمَّادوش، كشف الرموز في بيان الأعشاب، طبع على ذمة احمد ابن مراد التركي، ص 90، وفي طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، "كشف الرموز في شرح العقاقير والأعشاب" سنة 1996،ص 219

[38] لسان المقال، ص 121، يقول ابن القيم الجوزية " في زاد المعاد(4/96)": أما الحديث الدائر على السنة الكثير من الناس، الحمية رأس الدواء و المعدة بيت الداء و عدو كل جسم معتاد، فهذا الحديث إنما هو من كلام الحارث بن كلدة طبيب العرب و لا يصح رفعه إلى النبي، لسان المقال صفحة 255

[39] مرجع سابق، ص 255

ومن تجاربه العلمية المنبثقة عن الملاحظة الشخصية، تلك التجربة الخاصة بصنع مجوف من الزجاج، قصد معرفة الفرق بين أنواع المياه، ومعرفة الأثقل من الأخف، حيث خلص إلى أن ماء البحر يعتبر من أخف المياه، مقارنة بغيره «وماء البحر هو أخف الأمياه يصل إلى منتهى المجوف؛ وتلك النقط التي أسفله مثلها فيه من حب الرصاص الرقيق، فإذا كان الماء أثقل منه غرق في المجوف بقدر ثقله، إما بدرجة أو درجتين أو أكثر، فماء الحامة عندنا وماء تالاملي، أسماء مائين، أعدل الأمياه عندنا بلغ إلى السادسة، فهو أثقل من ماء البحر بستة أدراج، وماء المطر وبعض الآثار أثقل منه بدرجة وأثقل من ماء البحر بسبعة أدراج».[40]

كما أن لابن حمَّادوش اهتمام بعلم البونية (القنبلة)، وكيفية رميها، وقد ذكرنا أن له تأليف ا في ذلك، وقد أورد في رحلته كيف أنه تعلم رمي القنبلة، مرة رفقة العلج حسن، وكان ذلك قرب باب الجزيرة، ومرة بصحبة أسط محمد ابن البومباجي، قرب باب الواد وكلاهما بمدينة الجزائر، وهو دقيق في وصفه لكل ما يتعلق بذلك من أوزان وأحجام وأطوال، ويبدو أنه قد قام بالتجربتين المذكورتين.

انطلاقا من الدروس النظرية التي كان قد قيدها عن عبد الرحمن الفاسي، ففي تجربته يقول:، «إلى يوم السبت حادي عشر ربيع الأول الموافق الثاني وعشرين مارس خرجت لباب الواد مع أسط محمد ابن البومباجي ـ كذا وهي البونباجي بمهراس بالسين ـ صغير لتتعلم رمي البونية، فتصمت ما بقي لي، والحمد له، وأخذت علم البونية بارتفاعها وتعميرها ورميها وعجن بارودها، فأنا من علمائها، والحمد لله».[41]

مما سبق ندرك أن ابن حمَّادوش كان ذا ميول علمية متعددة، حيث لم تقتصر ملاحظاته وتجاربه على تعلم الأعشاب ومنافعها، بل تعدت ذلك إلى مختلف العلوم العقلية، من فلك وإسطرلاب وحساب وملاحة، وما إلى ذلك، ورغم أن معظم مؤلفاته في حكم المفقود فإن في رحلته ومعجمه الطبي ما يشير إلى الاهتمام المذكور، وسنركز فيما يلي على الاهتمام الطبي لابن حمَّادوش، انطلاقا مما ألفه في هذا المجال، ونقصد بذلك رسالته المعروفة بـ "تعديل المزاج بسبب قوانين العلاج"، والتي ألفها في مدينة رشيد بمصر سنة 1161هـ، أي بعد سفره من الجزائر بقليل، ومعجم كشف الرموز في بيان الأعشاب هذا الأخير الذي طبع عدة مرات، وهو عبارة عن معجم في الأعشاب ألفها ابن حمَّادوش بناء على مطالعاته في كتب الأقدمين، إضافة إلى التجربة الشخصية.

[40] لسان المقال، ص 219
[41] مرجع سابق، ص 253

المطلب الثالث: مكتبة ابن حمَّادوش[42]

من اهم مؤلفاته ما يلي:

- ✓ لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، طبعت سنة 1983م عن المؤسسة الوطنية للكتاب، بتحقيق الدكتور سعد الله، وأعد طبعها بعد ذلك عدة مرات، وهي تمثل الجزء الثاني فقط.
- ✓ الجوهر المكنون في بحر القانون كتاب في الطب، والقانون هنا إشارة إلى كتاب ابن سينا، والكتاب مفقود كغيره، ولم يبق منه سوى الجزء الرابع المسمى "كشف الرموز".
- ✓ تعديل المزاج بسبب قوانين العلاج.
- ✓ شرح منظومة ابن غرنوط بغية الأديب من علم التكعيب (فتح المجيب في علم التكعيب).
- ✓ تأليف في صورة الكورة.
- ✓ تأليف في الروزنامة.
- ✓ تأليف في قوس الشمس.
- ✓ تأليف في الفلك، جمع في معلومات في التواريخ السبعة: العربي، والمسيحي والإسكندرية، والفارسي، والملكي، والقبطي، والعبري.
- ✓ تأليف في الرخامة الظلية.
- ✓ تأليف في الأوراد الصوفية.
- ✓ السائح في حواشي المتن والشارح على ألفية ابن مالك.
- ✓ الدرر على المختصر، وهو شرح على مختصر محمد بن يوسف السنوسي في المنطق، وقد صححه على شيخه الورززي، الذي شهد له بذلك رفقة عدد من العلماء مدينة الجزائر، وهم أحمد بن عمار، وعبد الرحمن المازوني، وأبو القاسم بن يوسف الحسني، وعبد الملك البرنوصي السليماني، وكل ذلك مذكور في الرحلة (ص.258-263).
- ✓ تأليف في الإسطرلاب والربع المقنطر.
- ✓ تأليف في علم البلوط (معرفة الطرق البحرية).
- ✓ تأليف في البونبة، ضمها إلى ما تعلم من عبد الرحمن الفاسي.
- ✓ مباحث الذكرى في شرح العقيدة الكبرى محمد بن يوسف السنوسي.
- ✓ تأليف في الطاعون..
- ✓ ديوان الشعر: على الرغم من أن النماذج الشعرية المذكورة في"لسان المقال"، لا تدل على تمكن صاحبها، ذلك أنها مكسورة عروضيا أحيانا وتحويا في أحيان أخرى، فإن ابن حمَّادوش قد ذكر أن له ديوان شعر بناه على الغزل والنسيب والمرائي ومدح المصطفى - ﷺ -، وهو مفقود كسابقيه.

[42] أبو لعسل كمال،رحلة ابو حامد الغرناطي " دراسة في الفضاء"، نوميديا للطباعة و النشر و التوزيع، الجزائر، ص 693

الفصل الثاني:

رحلة عبد الرزاق ابن حمّادوش

تمهيد:

من الصعب القول أن أعمال ابن حمَّادوش لم تكن معروفة لمعاصريه أو الجيل الذي تلاهم، ففي الواقع لم تكن كتاباته ترضيهم، فقد كانت بسيطة و سلسة في تعابيره، فيما كانوا شديد الاهتمام بالتنميق اللفظية في كتابهم إلى درجة التقعر، ولم تكن مواضيعه مشابهة لموضوعاتهم، حيث ركز اهتمامه على الأسئلة العلمية بينما تعامل معظم معاصريه ومن تبعهم على الموضوعات الفقهية والصوفية، فعلى الرغم من معرفته الشخصية لأحمد بن عمار، إلا أنه لم يذكره في الجزء (لواء النصر).

وكان الحسين الورتلاني معاصراً لابن حمَّادوش، ومع ذلك لم نجد أي ذكر له في الرحلة الورتلاني، وكذلك لم يذكره ابن المفتي في تقاييده ونفس الشيء يقال في أعمال الجيل الذي تلاهم ، مع ذلك لا نعتقد أن بعض مؤلفات ابن حمَّادوش لم تكن معرفة لدى علماء بلده، ولذلك يرجح أن يكون بعض كتبه ولا سيما كتابه (الجواهر المكنون)، قد عُرف وانتشر بينهم. ومتداولا عند معاصريه وأسلافهم .

وبناء على ذلك نجد المفتي أحمد العالي الذي نقل في مذكراته عن رحلة ابن حمَّادوش بعض عادات الجزائريين في قراءة البخاري في رمضان وليلة القدر وغيرهما في بداية هذا القرن، ولفت الشيخ عبد الحي الكتاني الانتباه إلى رحلة التي احتوت على الإجازات والسندات، ثم توالت الاهتمامات بها خاصة السيد محمد داود مؤلف تاريخ تطوان، الذي علم ابن حمَّادوش نقل أخبارا مهمة عن تطوان في رحلة .

المبحث الأول: مفاهيم عن الرحلة ومضمونها

كان علماء المسلمين قد اهتموا برحلة ابن حمَّادوش لما فيها من أخبار سياسية و دينية و اجتماعية[43]، كما أن العلماء الأوروبيين قد اهتموا بآثارها العلمية على الخصوص .فالسيد لو سيان ليكيرك والسيد غبريار كولان اهتمامه بها لاشتملها على الطب الشعبي العرب، فترجم الجزء الخاص بالأعشاب والمعروف بـ"كشف الرموز"ونشره بالفرنسية، ودرس حياة ابن حمَّادوش وعرض أفكاره وملاحظاته وعلق عليها، ولا سيما ما جاء في عمله المسمى بـ (كشف الرموز)، وكلاهما نوها به واعتبره خارج عصره.

كما أن هناك علماء آخرون اهتمام برحلة ابن حمَّادوش فالسيد جواخيم دي خونزاليز الأسباني ذكره من بين مصادره الأساسية في رسالته المعروفة باسم"مشاهير مسلمي مدينة الجزائر"[44] وقد أخذ عنه أسماء ولاة الجزائر وقارنها بما أورده عبد الرحمن ابن رقية حول نفس الموضوع في كتابه"الزهرة النيرة" .ويعتبر خونزاليز ـ بعد العمالى ـ أول من استفاد من رحلة ابن حمَّادوش. وقد ألف رسالته"مشاهير في مدينة الجزائر"، والغريب أن خنزاليز استقى من الرحلة تاريخا غير مذكور في النسخة التي بين أيدينا وهو تاريخ وفاة علي باشا المعروف باسم بوصبع (ذلك العام1168)[45] .. ففي هذا المبحث حولنا التركيز على النقاط التالي:

- مفاهيم عن الرحلة ومضمونها.
- اهم مميزات هذه الرحلة.
- تقسيمات الرحلة.

[43] بكاري عبد القادر، مقال " عبد الرواق ابن حمَّادوش الجزائري والكتابة التاريخية من خلال الموسوعة لسان المقال في النبا النسب و الحسب و الحال"، موقع ابن باديس، سنة 2018

[44] أبو القاسم سعد الله، أوليات الرحلة، جامعة الجزائر،1982م

[45] مرجع سابق، أوليات الرحلة.

المطلب الأول: مفهوم الرحلة ومضمونها

تعتبر الرحلة قطعة هامة من تراث الجزائر الوطني خلال القرن الثامن عشر. ذلك أن الكتاب المغرضين كثيرا ما روجوا بأن الجزائر في العهد العثماني لا تملك هذا التراث إلا اليسير، والواقع أننا نجد مجموعة من الأعمال الجزائرية التي من كتبت خلال القرن المذكور منها (التحفة المرضية في سيرة الداى محمد بكداش)، و(الثغر الجاني في سيرة الباى محمد الكبير)، و(نحلة اللبيب في التشوق والاستعداد للحج إلى بيت الله الحرام)، و(نزهة الأنظار للورثلاني) وهي رحلة حجازية، وغيرها[46].

وتختلف رحلة بن حمادوش في أنها لا تتحدث عن سيرة شخص كالكتابين الأولين ولا عن ملابسات الحج كالكتابين الأخيرين، بل هي تروى في أسلوب يكاد يكون شعبيا وقائع وتواريخ وأسماء كانت في الجزائر.

وتمتاز أيضا بأنها تحتوى على جزء هام من حياة المغرب بدل المشرق، فهي إذا نظرنا إليها من زاوية آخري رحلة مغربية لا مشرقية. ولدينا وثيقة أخرى اكتشفها الأجانب وهى (تقييدات ابن المفتي) التي كتبت أيضا في القرن الثامن عشر، والتي كتبها أحد المعاصرين لابن حمَّادوش. وقد تضمنت أيضا حياة العلماء (المفتين المالكية والأحناف، والقضاة).

وقد أورد أساء لبعضهم نجدها في ابن حمَّادوش أيضاء مثل محمد بن ميمون والحاج الزروق وتمتاز رحلة ابن حمَّادوش على تقاليد ابن المفتي بأن صاحبها كان لا يسرد أسماء العلماء "الرسميين" ولكن يتحدث عن حياة المتفقين في الجزائر، بما في ذلك العلماء الرسميون. ثم إن عمل ابن المفتي يعتبر صغير الحجم بجانب عمل ابن حمادوش، وهو مكتوب بلغة تكاد تكون عامية. ولكن ابن المفتي تناول أيضا حياة الباشاوات وتصرفاتهم وأعمالهم، وامتاز على ابن حمَّادوش بأنه لم يذكر أسماءهم مجردة بل كان يعلق على عهد كل منهم ويذكر ماله وما عليه.[47]

ورغم ضعف منهجية الرحلة وكثرة الاستطرادات و الحشو فانها تبقى مصدرا لا يستغني عنه لفهم الحياة الاجتماعية والثقافية وحتى السياسية للجزائر والمغرب ذلك أن ما جاء فيها من أخبار اجتماعية كالعادات والتقاليد والأسعار والنقود والمهور وإحياء المولد النبوي وليلة القدر والأعياد.. الخ يعتبر مادة أولية بالنسبة الباحثين في القرن الثامن عشر.

وقد عرفنا كم تحدث ابن حمَّادوش عن إجازات العلماء وعاداتهم في القراءة والإقراء، وعلاقاتهم يبعضهم وتنافسهم ومقدار معارفهم، سواء كانوا في المغرب أو في الجزائر، وهذه النقط مكان القوة في هذه الرحلة.

أما الحياة السياسية فبالرغم من أن ابن حمَّادوش لا يكثر من الحديث عنها لا سيما في الجزائر، فان ما جاء منها في الرحلة يجعله ضروريا لكل طالب حقيقة، ولاشك أن كتابته عن أخبار ولاة الجزائر والصلح مع الأجانب وبعض الثورات الداخلية لا يمكن الاستغناء عنه فثورة أحمد الريفي في المغرب تعتبر مصدرا أساسيا لفهم هذه الثورة، كونه لم يظهر حتى الآن ما يجعله مصدرا ثانويا.[48]

وهناك قيمة أخرى لهذه الرحلة وهي أنها مصدر لحياة مؤلفها ذلك أن المعاصرين لابن حمَّادوش لم يترجموا له كما لم يترجم المتأخرون وبذلك ظلت حياته مجهولة ولم يستطع ناشرو أعماله خلال القرن الماضي وبداية هذا القرن أن يكتشفوا منها حياة مؤلفها، أما هذه الرحلة ففيها كما عرفناء الكثير عن أخباره ونشاطه العلمي وتأليف ه وأسفاره وعلاقاته، وإذا كانت لا تجيب على كل الأسئلة المتعلقة به فإنها لاشك تلقى أضواء على بعض الجوانب الخفية من

[46] مرجع سابق، ابن حمَّادوش الجزائري حياته و أثاره، ص 76
[47] مرجع سابق ، ص 76
[48] مرجع سابق، ص 77

حياته، ومن خلالها نستطيع أن تقول أننا نعرف الكثير عن ابن حمادوش و سوء الحظ أن جزاها الأول ضائع كما يعتبر باقيها ضائعا أيضا ولو أمكننا الاطلاع على كل الرحلة لجاءت صورة صاحبها كاملة أو جزاء منها.

تكاد تحفل الرحلة بمواد غزيرة من أسماء الأماكن وبعض التراكيب العام والمصطلحات المحلية التي تزيد في قيمتها لدى الباحثين، فالمؤلف يورد اسيا الحامة والتاملي (وليس التلملي) وجبل بومعزة الواقع تحت جبل بوزريعة وسباو... وغير ذلك من الأماكن التي تهم المؤرخين والجغرافيين وحتى أهل اللغة، وفي الرحلة طائفة من أسماء الأعشاب التي كان يدرسها ويتعلم العلاج به بالإضافة إلى تصحيح الأعلام الباشاوات وألقابهم، فهو يكتب اهج بدل هجي (عند خونزاليز) وباشة بدل باشا، والأجه بدل اهجي (عند خونزاليز) أيضا، وروى بن حمادوش أن أمه قد عيرته حين غضبت منه فقالت (لسؤ سعدى) أنجبتهم (لعله يعنى هو وإخوته) ذكورا لا إناثا، وعبارة ((سوء سعدى)) تقولها النسوة إلى اليوم في مدينة الجزائر مع بعض التحريف، وهذه المعلومات مبتونة في الرحلة وهي ذات أهمية في نظرنا لدارس المجتمع الجزائري في القرن الثامن عشر. [49]

والباحث عن تراجم العلماء خلال الفترة المذكورة يجد في الرحلة مادة هامة والمعروف أن لابن عبار كتابا مفقودا سماه (لواء النصر في فضلاء العصر) ولا شك أنه ترجم فيه لنخبة من معاصريه، ولعل منهم ابن حمَّادوش.

ونحن لا نكاد نعرف عن ابن عبار نفسه إلا ما ذكره هو ، في (نحلة اللبيب) وبعض الأخبار الأخرى قليلة الأهمية أما رحلة ابن حمَّادوش ففيها عنه معلومات طبية.

وكذلك تقدم لنا الرحلة معلومات هامة عن محمد بن ميمون (صاحب التحفة المرضية)، وهو أيضا غير مترجم اكتشاف رحلة ابن حمَّادوش وكما أورد ابن حمَّادوش أخبارا عن ابن ميمون وابن عمار فقد قدم معلومات حية عن بعض علماء المغرب، وخصوصا محمد بن عبد السلام البناني وأحمد الورززي، وأحمد بن المبارك، وعبد الوهاب ادراق، ولعله يعتبر أول من نقل فهرس البناني وفهرس الصباغ الاسكندري إلى الجزائر ..

وتمتاز الرحلة بروحها العلمية والنقدية، فابن حمَّادوش كما لاحظنا كان كثير الاهتمام بالمسائل العلمية، وهو بالمقارنة عن غيره لا يحفل كثيرا بالسجع والزخرفة اللفظية (كابن ميمون) في أسلوبه، ولا بالروح الخرافية والأسطورية كالارثلانى[50].

حقا إننا نجده يزور قبر الشيخ على الريفي عندما كان بتطوان ولكن زيارة القبور لم تكن عندئذ علامة تخريف عقلي، كما ذكر في الرحلة انه أن كتب في الأوراد ونحوها، غير أننا لم نطلع على ما فيه ولذلك يصعب الحكم عليه من خلاله .

أما الروح الدينية الصوفية فهي بضاعة العصر، لذلك كانت ظاهرة في رحلته أيضا، ولكنها ضعيفة بشكل يلفت النظر، رغم ادعائه الشرف وتمسكه بالمذهب الأشعرى، وهو في مناقشاته مع الطلبة والمعترضين يظهر عليه التفكير المنطقي وتقدير العبارات حق قدرها، وكان يحاج المعترض حتى ينتصر عليه في دعواه، وكان ابن حمَّادوش ينتقد بعض علماء عصره ويجادلهم سواء منهم الذين استنقصوه كابن علي أو الذين أجازوه كالورززي، أو الذين كان يجالسهم ويقرأ معهم كابن ميمون، وهذه من الظواهر الايجابية في عمله الذي نتحدث عنه .

والنقول التي أوردها ابن حمَّادوش من الكتب والوثائق تعطى لرحلته قيمة أخرى، فبالرغم من أن بعض الكتب قد طبع كالإنس الجليل فان ما بقي من هذه النقول ولا سيما نصوص العقود والإجازات والأسانيد والشهادات يعتبر على درجة قصوى من الأهمية .

[49] مرجع سابق، ابن حمَّادوش الجزائري حياته و أثاره، ص 78
[50] مرجع سابق، ابن حمَّادوش الجزائري حياته و أثاره، ص 79

وهكذا يتضح أنه بالرغم من بعض نقاط الضعف فان رحلة ابن حمَّادوش تتمتع بقيمة نادرة كجزء من التراث العربي الإسلامي للجزائر وكمصدر لمعرفة الأحوال الاجتماعية والثقافية والسياسية، وكسيرة ذاتية للمؤلف نفسه .

وتحتوي رحلة ابن حمَّادوش على موضوعات كثيرة ومتعددة غير مترابطة فيما بينها ولا يمكننا أن نشير إليها جميعا ولكننا سنكتفي بالإشارة إلى بعضها فقد تبين لنا بعد قراءة هذه الرحلة أن هذه الموضوعات تنقسم إلى شعرية ونثرية.

- ✓ الشعرية:

إن القارئ المتأمل في رحلة ابن حمَّادوش الجزائري يلاحظ أن صاحب الرحلة قد أضاف فيها عدداً كبيراً من الأشعار، سواء كانت من تأليف ه أو لشعراء آخرين، في مختلف الأغراض الشعرية، ولا يوجد في ذلك شيء غريب، فالشعر يحتل مكانة بارزة في معظم الرحلات، ورحلة ابن حمَّادوش ليست استثناءً، فإنها تتضمن الشعر كما تتضمن الأحاديث والأخبار والمشاهدات والقضايا اللغوية وغيرها[51]، ويعد الشعر من جوانب الرحلة الهامة كما هو الحال في الأحاديث والأخبار وغيرها .تعتبر رحلة ابن حمَّادوش على وجه الخصوص من المصادر التي حفظت لنا الكثير من النصوص الشعرية، وقد تكون غير متوفرة في مصادر أخرى، فإن لم يتم استخدام رحلته بشكل فعّال، فلن يتسنى لنا التعرف عليها ولا على أصحابها ولا على أغانيها .

ويحتل الشعر مكانة مهمة في هذا النص الرحلي، حيث يكون جزءًا أساسيًا من النص ومتصلاً مع السياق النصي، مما يجعله لا يمكن فصله عن الرحلة.

وربما يكون استخدام ابن حمَّادوش لهذه الأشعار نابعًا من ثقافته الشعرية الواسعة ومعرفته العميقة بها، وقد يهدف من خلالها إلى الترويج للشعر ونشره، وعندما يتصفح القارئ المتن الرحلة، يجد أن معظم صفحاتها تحتوي على أبيات شعرية، والتي يستخدمها الكاتب عادةً لإضفاء التأثير والتأكيد على بعض المسائل، وأحياناً يُوشح بها مقدمات كلامه وخواتمه.

- ✓ النثرية:

إن القارئ المتأمل لرحلة ابن حمَّادوش يستشعر أن صاحب الرحلة قد أراد كسر رتابة الحكي أو السرد من خلال إدخال بعض الفنون في أعماق رحلته، مثل المقامات والقصص والأساطير.

يترك صاحب الرحلة أحيانًا مساحة للقارئ للترويح عن نفسه، من خلال إدماج هذه الفنون في الرحلة، وعلى الرغم من أن هذه الفنون تلعب دورًا إيجابيًا في إضفاء الأبعاد الأدبية والجمالية على الخطاب الرحلي، إلا أنها تجعل الرحلة تبدو وكأنها فسيفساء تجمع بين التاريخ والحكاية والقصص والمقامات .

وهذا يجعل القارئ يشعر أنه يقرأ مجموعة من الكتب وليس كتابًا وأحدا .ومن هذه الفنون ينبثق إثراء الأدب العربي وتعزيزه في صفحات الرحلة.

[51] الشوابكة عبد الرحمان " نوال "، آداب الرحلات الأندلسية و المغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، ص 276.

المطلب الثاني: اهم مميزاتها هذه الرحلة

تمتاز الرحلة عن غيره من الفنون الأخرى بمجموعة من الخصائص وهي سمات تكاد تحضر في جل النصوص الرحلين إلا أن الفرق يتجلى في تفاوت الرحلين في الاستعانة بهذا العنصر أو ذلك ومن هذه السمات:

- ✓ الشمولية والتنوع:

وهما ملمحان بارزان في معظم ما كتب في هذا الميدان يقول الباحث سيد حامد الساج: "تتسع موضوعات الحالة فتشمل كتبهم التاريخ والجغرافيا والدين والاجتماع والسياسة" [52] ومعني ذلك أن أدب الرحلة أدب يشمل الحياة بكل ما فيها من تفاصيل ويلم بمختلف الجوانب الخاصة بالإنسان، فتجد الحديث عن البيئة والمأكل والملبس والعادات والتقاليد والنظم الاجتماعية والسياسية وإدراج لحقائق تاريخية ووصف للحركة الثقافية وغير ذلك من الأمور، كما أن أدب الرحلات له القدرة على تناول مختلف المواضيع وهو ما أشار إليه الباحث ناصر عبد الرزاق الموافي في قوله:"أدب الرحلة وعاء لكل مضمون، وهو لا يفرق بين مضمون خسيس وآخر شريف أو بين مضمون مهم وآخر تافه فكل مضمون قابل للتدوين طالما قبله ذوق الحال واقتنع به"[53].

- ✓ الحس الإسلامي

وهي سمة تكاد تطغى في معظم الرحلات وتتبدى في توظيف الرحّالة لأساليب القرآن الكريم أو الحديث الشريف سواء عن طريق الاقتباس أو التضمين، حتى أصبحت هذه الأساليب جزءا لا يتجزأ من لغة الرحّالة ومن ثقافته الخاصة

- ✓ الحس النقدي:

إن الرحّالة وهو ينتقل من موضع لآخر يدون كل ما تلتقطه عدسته من مشاهد وهو لا يكتفي والوصف فقط بل إنه يتعداهما إلى التفسير والنقد ولهذا يرى الباحث ناصر عبد الرزاق الموافي أن:"أهم ما يجب أن يتحلى به الرحال هو امتلاك الناقد البصير المحايد، وإذا لم تكن هذه الروح كامنة فيه قبل تحركه، فإن الرحلة كفيلة ببثها في نفسه".[54]

- ✓ النزعة إلى الواقعية:

استطاع الرحّالة أن يختاروا من الأحداث ما يظهر رؤيتهم وانطباعاتهم في هذه الرحلات واضح ذلك فيما حملته رحلاتهم من مضامين ناقدة باصرة لما حولها، وذات مزيج ثقافي، فكانت رحلاتهم صورة لممارساتهم في هذه الرحلات ومن مظاهر هذه الواقعية ذكر التفاصيل الدقيقة عن الأماكن التي مروا بها بشكل صريح، وما يؤكد واقعية الرحلة كونها محددة بإطار زماني ومكاني.

- ✓ النزعة القصصية:

على الرغم من أن أدب الرحلات يقترب من الواقع إلا أن ذلك لم يمنع الرحّالة من محاولة نقل هذا الواقع وتصويره للمتلقي وكأنه قصة صادقة عنه لم يكن للخيال فيها مجال إلا في بعض المواقف التي تستدعى ذلك كإيجاد الشخصيات وخلق الحوادث.

---

[52] الساج " سيد حامد "، مشوار كتب الرحلة قديما و حديثا، ص09

[53] الموافي ناصر عبد الرزاق، الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع للهجرة، ص 48.

- ✓ الطابع الوثائقي:

الرحلة وثيقة يمكن الركون إليها فهي محددة الزمان والمكان، واقعية ذات أهداف ونتائج هذا فضلا عن كونها معروفة المؤلف وفى هذا يقول الباحث عبد الرزاق الموافي:"الرحلة وثيقة حية، ونتاج معاينة ومعاناة وأذواق منقحة ".[55]

- ✓ الطابع الإنساني:

الحالة إنسان يصف الإنسان بكل جوانبه الخلقية والخلقية وصفاته العقلية والنفسية وعاداته ومعتقداته وما إلى ذلك.

- ✓ الطابع الجمالي:

إن إحساس الحالة بالجمال هو الذي دفعه إلى وصف المشاهد ولكن الجمال الذي يخرج الرحال من أجله موضوعه المتعة ولا علاقة له بالمنفعة الحسية

- ✓ الوصف:

لا تخلو رحلة من الرحلات من عنصر الوصف باعتباره عنصرا أساسا فالرحّالة وهو ينتقل من مكان لآخر يلاحظ ويصف كل ما تقع عليه عينيه من مشاهد فيصف البيئة والمطبخ والعادات والتقاليد والعمران وما إلى ذلك.

- ✓ توفر أدب الرحلات على تيمة السفر.
- ✓ تنوع الأسلوب من السرد القصصي للمغامرات والعواطف المحركة للبشر إلى الحوار والوصف الطريف وغيره

[55] الموافي ناصر عبد الرزاق، الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع للهجرة،

المطلب الثالث: تقسيمات الرحلة

يرى أبو القاسم سعد الله أن الرحلة دامت قرابة خمس سنوات لقوله: "وبداية تاريخ هذا الجزء هو غرة عام 1156هـ الموافق لـ 14 فبراير سنة 1743م، ويمثل التاريخ المذكور بداية رحلته إلى المغرب، و أخر تاريخ مذكور فيها (على فرض صحة القسم الذي لم نقطع بنسبة اله) هو سنة 1160هـ - 1747م، و ذلك أننا نجذه في السنة الموالية بمصر"[56] ، بالعودة إلى تقسيم المحتوى العام للرحلة، فنجد:

- ✓ القسم الأول:

قد أطلق عليه اسم "قسم المغرب وهو من 2-72، وهذا القسم هو الذي يصح أن نسميه "رحلة"[57]، لكن حسب النسخة التي بين أيدينا فالرحلة تبدأ من الصفحة 30 إثر وصول المؤلف عند جبل طارق لقوله: "وفي هذه الساعة كنا على ظهر البحر، قريبنا من غرناطة، و كنا عاشر خروجنا من الجزائر، والاثنين حادي عشرتا، ويوم الأربعاء سادس عشر فبراير ألقينا مراسي بجبل طارق، ونحن على وجل"[58]، وينتهي هذا القسم حسب النسخة في الصفة 114 إثر سفره إلى الجزائر أي عودته فيقول: "سافرنا عند غروب الشمس ليلته.

إلى أول ساعة من يوم الاثنين التاسع من الشهر المذكور موافق لـ ثاني عشر مارس دخلنا مرسى الجزائر، ونزلت في حيني و دخلت داري في أول الساعة الثانية[59].

فكانت رحلته لبلاد المغرب ذات قيمة علمية كبيرة، ففي مدينة تطوان التقى بثلة من العلماء كالشيخ الورززي و الشيخ امحمد البناني الفاسي، كل هدا عاد بفوائد جما سجلتها الرحلة.

لقد كان ابن حمادوش من النوع الدقيق في وصف كل ما تقع عليه عينه سواء كانت أحداثا أو عادات أو تقاليد ، أو فضائل فيقول واصفاً ثورة حاكم تطوان على السلطان عبد الله و يذكر السبب " أنهما نسوا الفتنة و الهرج ، و نحن قريب من المرج ...وقع قتال بين العسكريين الذي أشرت إليه أول هذا الجزء، و ذلك أن الباشا أحمد بن عبد الله الريفي كثر ماله و تجبر في نفسه و طغى على عبد الله حتى قرر المكوس كأنها سنة [60]. "

كما وصف بعض مظاهر الحضارية من عادات و تقليد للمجتمعات المغربية و الجزائرية فيقول واصفاً حماماتهم " منها أن رجالها لا يتعممون إلا القليل و أن نساءها لهم عمائم كبار ، إما من حرير فثمانية عشر ذارعا بذارع بني أدم المعلوم في الأسواق. " [61]

كما نجد للشعائر الدين وصفا بالغ الدقة فيقول في عاداتهم أيام الأعياد: " و في يوم السبت صنع عيد الأضحى بغتة . كان مطر غزير و سحاب ليله و نهاره . إلى الضحاء أتت بينة من

[56] ابو القاسم سعد الله ، أبحاث و أراء في تاريخ الجزائر ، ص 229.
[57] المرجع نفسه ، ص 230.
[58] عبد الرزاق بن حمادوش ، لسان المقال ، ص 30
[59] ابو القاسم سعد الله ، رحلة ابن حمادوش الجزائري، ص114
[60] نفس المرجع، ص114
[61] نفس المرجع، ص94

طنجة فصنع العيد و ذهبنا إلى المصلى فخرج قائدهم في جماعته و بين حربة عالية طويلة جدا و أمامه نحو المائتي مسخر حاملة المكاحل كلها "[62]

✓ القسم الثاني:

ما هذا القسم فهو" قسم عن مؤلفته في الجزائر ، فنجده روى أخباره مفرقة ضمن قصص و استطرادات ، و هو عبارة عن مذكرات و حوادث يومية عن قراءاته و ملاحظاته و نشاطه.[63]

فقد سرد لنا في هذا القسم تفصيل عن حياته ما بعد رحلة إلى المغرب و عودته إلى الجزائر فبقول: " و دخلت داري في أول الساعة الثانية ، فوجدت عندي ولدين ، سيدي الحسن و سيدي الحسين ، ولدتهما زهرا ، زوجتي توأمين"[64] .

و كان الرحلة مهتم بطلب العلم وتحصيل العلوم، ما جله يسخر جُل وقته فتحصيلها ، الشيء الذي أدى إلى توتر العلاقات بينه و بين أهله و خير دليلا قوله: " و لم أرها فرحت بقدومي ، لأنها أيقنت أن أكثر المال ضاع لي فلم يبق لها غرض فيّ ، و لم تر لما عندي من العلم".[65]

فيلُحظ أن حياة الأسرية لم تكن بذالك النجاح العظيم، نظرا لولعه الشديد بمجال العلوم وكثرة الإسفار لتحصيلها، وإهمال ـ إن صح التعبير ـ الجانب الأسري.

✓ القسم الثالث:

أما القسم الأخير من الرحلة فقد تضمن على اقتباسات عن كتب ووثائق قديمة وأخرى معاصرة ككتاب الدولة للمطلي و أنس الجليل للعليمي و غيرها... إضافة إلى بعض عقود الزواج و القصص و الإجازات و الأسانيد... وهذا ما صرح به قائلا: "و أخذت العقائد النسفية و شرحها للإمام السعد و بعضا من حواشيها كابن أبي شريف – بكسر الشين -وغيره عن عدة أشياخ أجلة منهم الإمام الهمام أبو الحسن السندي عام ست و عشرين (1126) بالحرم المكي عند باب علي ، كرم الله وجهه ، آمين . و منهم محمد أفندي قاضي ازده في عام سبع و عشرين (1127) بإسكندرية ، و كذا أخذت عن الثاني منظومة العلامة سيدي أحمد المقري قراءة تحقيق ، علقت عليها تعليقا لطيفا من تقريره نافعا إن شاء الله"[66]

و يمكن القول أن رحلة ابن حمادوش الجزائري المسماة لسان المقال في النبأ عن النسب و الحسب و الحال كانت لغرضين احدهما لطلب العلم و أخرى لإغراض الشخصية كالتجارة... ولعلنا لو اطلعنا على الجزء الأول منها لاتضحت لنا الصورة بشكل كبير، فالأمر الذي يدل على انه يوجد أجزاء أخرى من الرحلة قوله ما يلي: " "وقد تقدم في الجزء الأول[67] . " وقوله كذلك

[62] عبد الرزاق ابن حمادوش، لسان المقال...،ص107
[63] أبو القاسم سعد الله ، أبحاث و أراء في تاريخ الجزائر، ص231
[64] مرجع سابق، ص114
[65] مرجع سابق، ص115.
[66] عبد الرزاق ابن حمادوش، لسان المقال.. ، ص 274.
[67] مرجع سابق، ص 126

: " و في يوم الخميس ثالث و عشرين رمضان ، موافق ثامن عشر أكتوبر ، تممت الجزء الأول من هذا التأليف."[68]

فلرحلة فوائد جما أهمها نقل أخبار عن بلاد المغرب و الجزائر في ذك العصر و أحواله الاجتماعية والسياسية و الاقتصادية... فهي بمثابة ارث جزائري خاص و عربي إسلامي بوجه على العموم.

[68] عبد الرزاق ابن حمادوش، لسان المقال.. ، ص 124.

المبحث الثاني: البناء الفني للرحلة

لو تأملنا في نص رحلة ابن حمَّادوش وحاولنا أن نصنفها لو جدتاها تقترب من البنية النمطية تارة ومن البنية الانتقائية تارة أخرى فالقارئ للرحلة يستشعر وكان كاتبها انتقى كثيرا من النصوص من كتبٍ سابقيه خاصة إذا ما تعلق الأمر بالنقول التي أوردها في رحلته من التاريخ كتاب الكردبوسي والعالمي... وغيرها، وقد يتساءل المتلقي عن سبب اقتراب نص رحلة ابن حمَّادوش من البنية النمطية رغم عدم احتوائها على مقدمة وخاتمة نقول له بأن عدم احتواء الرحلة عليهما لا يعني بالضرورة أن صاحب الرحلة لم يكتبهما ولكن الجزء الموجود من الرحلة فقط هو الذي لا يحتوى عليهما فقد تكون المقدمة مضمنة في الجزء الأول كما قد تكون الخاتمة في الجزء الثالث، كما أكسبت النص تلوينات شتى تحولت وانتقلت ساخنة إلى دفء المكتوب وسط أشكال عالية - على حد تعبير شعيب حليفي -"[69]

[69] حليفي شعيب، الرحلة في الأدب العربي، ص 280

المطلب الأول: اللغة والأسلوب تدون الرحلة

اللغة من أبرز الآليات التي يستخدمها الرحّالة في ترجمة أفكاره ومقاصده التي يروم اليها ، بل إنها الجسر الذي ينقل عبره كل ما تصوره عدسته من مشاهد رآها أو سمع بها للمشاهد أو المتلقي فيدعوه إلى مشاركته واستحضار تلك الصور كما لو أنها مماثلة أمامه، خاصة وأن ابن حمَّادوش في رحلته قد بدا دقيق الملاحظة تعتبر حريصا على تتتبع جزئيات الأمور وتفاصيلها لأن الهدف من تدوين الرحلات هو الوصول إلى حقيقة،الإنسان ووضعه في الكون، ونجاح الكاتب مهون بتوضيح هذا الجانب كما يراه"[70].

ومعنى ذلك أنه متى استطاع كاتب الرحلة أن يتحرى الصدق في عرض مشاهداته، فإن ذلك يجعلها أكثر واقعية وهو ما ينطبق على رحلة ابن حمَّادوش ولهذا يرى الباحث ناصر عبد الرزاق الموافي أن"البناء المنطقي"خير وسيلة لتحقيق الهدف، وهذا البناء يبدأ من الوحدات الصغيرة المتمثلة في الكلمة أو اللفظة الأمثلة التي تؤكد بساطة الرحّالة في تعابيره ووصفه لمرض أحد المرافقين له في السفينة في قوله:"فبقي كذلك والمرض يزداد حتى ظهرت في فخذه حبة وحمرة في ساقيه فتعين أنه وباء... وحضر جنازته خلق كثير تقرب من ألفي رجل وخمسين امرأة".[71]

ويصف الباحث أبو القاسم سعد الله أسلو ب ابن حمَّادوش في الرحلة بقوله:"وأسلو ب الرحلة يمتاز بالسلاسة والتتابع ولا تثقله إلا عبارة الانتقال من فكرة إلى فكرة أو من فاصل زمني إلى آخر وهي وفي يوم كذا جرى كذا، أو ثم دخل عام كذا وأوله هو يوم كذا... الخ"[72].

والقارئ لنص الرحلة يلتفت إلى أن صاحبها لم يول عناية كبيرة للمحسنات البديعية والصور البيانية ولا غرابة في ذلك لأن حرص ابن حمَّادوش على إظهار الحقائق كما رآها أو سمع بها أغناه عن الاهتمام بالزينة اللفظية التي تحجبها عن المتلقي فقد حاول الوصول إلى هدفه من أقصر الطرق، وما ورد من المحسنات البديعية فهو قليل جدا كتوظيفه للجناس في قوله:"إنهم أنسوا الفتنة والهرج، ونحن قريب من المرج،[73]، ومن الصور البيانية التي وردت في الرحلة الكناية في قوله:"فلما استقر الدواء في بطني أمسكت الأعضاء كلها عن الاختلاج"[74].

وهي كناية عن تماثل ابن حمَّادوش للشفاء بعد الحمى التي أصابته، وفي قوله أيضا في أحدهم:"دخلت عليه بقصيدة وسلمت وقبلت يده فأومأ لي بالجلوس، فجلست نصف جلسة وهي كناية عن قلقه وعدم ارتياحه من هذا الشخص".

ويبدو أن ابن حمَّادوش قد حاول التخلص من سيطرة المحسنات البديعية والصور البيانية عليه لإيمانه بأن التكلف فيها ومعاناتها يصير الغفلة عن التراكيب الأصلية للكلام، فلا يبقى فيه إلا تلك التحسينات".

أما إذا تأملنا الجمل التي كتب بها هذا النص الرحلي وجدناها سهلة مألوفة ودقيقة طريفة ركزت على الأفعال لاتفاقها وطبيعة الرحلة ولسماحتها بالحركة المتتالية للصور ذات الانتقال السريع، لذا امتاز الأسلوب بالتلقائية، والاسترسال، ووضوح المعاني، فقد كان للأفعال دور كبير في بيان دلالات الرحلة.

ولهذا يمكن القول إن من أهم الخصائص البنيوية والسمات التي تلو ح للقاري الناقد في تعامله هذا النص الرحلي هو شيوع الاتكاء إلى سند الجملة الفعلية وهي ظاهرة كثيرا ما يعتمدها

[70] الموافي" ناصر عبد الرزاق"، الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، ص 75
[71] عبد الرزاق بن حمّادوش، الرحلة، ص 86
[72] أبو القاسم سعد الله، الطبيب الرحالة...، ص 59
[73] عبد الرزاق بن حمّادوش، الرحلة، ص 75
[74] مرجع سابق، ص 81

الرحّالة فقد مال كما يلاحظ في رحلته إلى الاستعاضة عن الصفات أو ما يقرب منها من الأسماء بصيغ بديلة وهي الأفعال والصيغ المشتقة منها.

وقد نوع الرحّالة في استخدامه للضمائر المتصلة بتلك الأفعال حيث وردت أفعال أسندها الرحّالة إلى ضمير الجمع (كنا، خرجنا، زرنا،بتنا،نزلنا مكثنا سرنا...) وأخرى إلى ضمير المتكلم ومنها (سمعت،دفعت،لقيت نزلت...) الأمر الذي أكسب الأفعال حيوية وحركة تنسجم مع فعل الرحلة[75].

ويبدو أن ارتفاع تواتر الجمل الفعلية في هذا النص الرحلي ظاهرة ينبغي الوقوف عندها والتنقيب فيها للكشف عن الأسباب التي دفعت ابن حمَّادوش إلى استعمالها بهذا الشكل، والدراسة عن العلل التي يرتد إليها وجودها، وهي فيما أحسب تعود إلى ذلك التدفق الهائل من الحركة الذي يعم عالم الخلق الأدبي في هذا النص إنها حركة متوالدة متدافعة، متشابكة خيوطها مختلفة المناحي والوجهة حركة يفرضها النص نفسه ولعل هذا ما حدا بالباحث نواري سعودي أبو زيد في كتابة جدلية الحركة والسكون إلى القول:"تبدو عبقرية المبدع في استخدام صيغ الأفعال جلية للدلالة على معان مخصوصة في أزمنة معلومة محددة مراده، ولعل أبرز ما يلو ح للدارس في هذا المقام هو إيحاء الأفعال بمعاني التحول والانقلاب..."[76]، وهو الأمر الذي يتفق مع رحلة ابن حمَّادوش التي تفيض بالحيوية والحركة.

ويلجا ابن حمَّادوش في بعض الأحيان إلى استخدام الجمل الاعتراضية كما هو الحال في قوله:"ثم إلى مجلس حسن ـ كان له مجلس من مجالس ملوك بيت في رياض من نوار شتى، عنبر ومياه، والناس يقصدونه عناك للتداوي، ولا يجلس إلى الضحى والعشية، جعل هذين الوقتين لمصالح المسلمين ففي الصباح ينظر القوارير العراقية ويخبرهم بما يصلح بهم والعشية للأسئلة ـ إذا أن هناك أخذاتني حمى نافض، فقمت ترتعد فرائصي..."

ومما تميز به أسلو ب الرحّالة أيضا كثرة اقتباساته من الشعر والقرآن الكريم والحديث الشريف وكذا الأمثال والحكم ولعل مرد ذلك راجع لكثرة محفوظات وسعة ثقافته، الأمر الذي جعل رحلاته غنية بالشواهد النصية التي تدعم أفكاره وتضفى على أسلو به طابع الجمالية، وقبل أن نورد نماذج من هذا التوظيف ارتأينا أن نقوم بإحصاء هذه الشواهد لمعرفة نسب توظيفها وتوزعها في متن الرحلة.

ومهما يكن فقد استطاعت رحلة ابن حمَّادوش أن تعرفنا على صاحبها وعلى ذوقه واختياراته وعلى اللغة التي كانت سائدة في عصر كما أنها استطاعت أن تنقل المتلقي الأحداث والمشاهدات بكل صدق وموضوعية.

[75] عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1"2000"، ص 131.
[76] نواري سعودي أبو زيد، جدلية الحركة و السكون، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1"2011"، ص65

المطلب الثاني: المنهج كتابة الرحلة

لقد اختلف الرحالون في تحديد أهدافهم من الرحلة فمنهم من كان هدفه علميا وعلهم من كان هدفه دينيا ومنهم من كان ترفيهيا، واختلفت بذلك مناهج تدوينهم رحلاتهم ومن أهم هذه المناهج التدوين الزمني، التدوين المكاني، التدوين الموضوعي، التدوين الانتقائي، والتدوين الأستدعائي، ولما كان التدوين الزمني من أهم المناهج استخداما، وأكثرها تنوعا، وأضبطها وأوثقها [77]

فقد آثر ابن حمَّادوش هذا المنهج في كتابة رحلته وهو ما يمكن أن نستقيه من قراءتنا للرحلة ولعل أهم ما يلاحظ في هذا النص الرحلي هو عناية ابن حمَّادوش الكبيرة بعنصر الزمن فهو لا يكتفي بتقسيم رحلته وفقا للسنوات والشهور والأيام بل انه يذكر على الساعات في بعض الأحيان، الأمر الذي يؤكد دقة ابن حمَّادوش وواقعية الأحداث التي رواها فيها ومن التي تؤكد اهتمام الرحّالة بالزمن بكل تفاصيله قوله: الجزء الثاني من رحلة لسان المقال في النسب والحسب والحال مبدؤه من أول ليلة الاثنين فاتح عام 1156 عربية الموافق رابع عشر فبراير ثاني شهور سنة 1743 مسيحية وخامس شهور سنه مسرحية[78]

ولو تأملنا رحلة ابن حمَّادوش لأدركنا مراعاة صاحبها الترتيب في سرد الأحداث فيقول:"مثلا يوم الأربعاء أذن لي الشيخ البناني والوزي بأن ادرس المقنع... وفي يوم الخميس لقيت الشيخ الورززي."، وهكذا يواصل ابن حمَّادوش عرض أحداث رحلته حيث ينقل المتلقي إلى عالمه يوما بيوم معتمدا على معاينته للوقائع أو سماعة للأخبار والأحداث، مما يشعر المتلقي بصدق الرواية.

والواقع أن رحلة ابن حمَّادوش لا تحتوي على منهج محدد - وإن كان الترتيب الزمني هو الغالب عليها إذ نجده يزاوج فيها بين أكثر من منهج أي بين التدوين الزمني والتدوين الانتقائي الذي تلمسه من خلال إيراد ابن حمَّادوش لبعض القصص والحكايات والنصوص التي من قراءاته لكتب الآخرين ككتاب الكردبوسي والملطي وصحيح البخاري... وغيرها.

هذا فضلا عن اعتماده في أكثر من موضع في الرحلة على الاستطراد الذي يثقل الرحلة ويؤثر على منهجها وأسلوبها في أن وأحد، ولكنه يترك للقارئ مساحة للترويح عن نفسه، ولعل هذا ما كان يقصده ابن حمَّادوش من استخدامه لتقنية الاستطراد في سوق أخبار رحلته، فما أن يذكر موضوعا من الموضوعات حتى تراه يندفع وراءه يشبعه بحثا وملاحقة حتى أعمق جذوره وأدق متعلقاته.

وهذا بلا شك بعض نتائج ثقافة رحلتنا الرحبة ومعارفه الواسعة ولذلك فهو يحرص دائما على إمداد القارئ بأكبر قدر من المعارف، ويكفيه في هذا المجال إشارة بسيطة حتى يزل قلمه، ولا يكتفي إلا بورود منابع موضوعه، فلا يذكر ملوك آل عثمان مثلا حتى تراه يفصل الحديث عن تاريخ ولايتهم حسب تسلسلهم الكرونولوجي، وكذا في حديثه عن ولاة الجزائر.[79]

[77] الموافي" ناصر عبد الرزاق"، الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، ص 63
[78] عبد الرزاق بن حمّادوش، الرحلة، ص 35
[79] مرجع سابق، ص 35

ويرى الباحث أبو القاسم سعد الله أن المحتوى العام للرحلة يمكن أن يقسم إلى ثلاثة أقسام رئيسية، الأول قسم المغرب وهو في حوالي 75 صفحة، والثاني قسم نشاطه الشخصي في الجزائر وغيرها من قراءات وتدريس وعمل واتصالات وتأليف أما القسم الثالث فهو يتناول النصوص والوثائق التي أو ردها مثل قائمة ولاة الجزائر من أول دخول العثمانيين إلى زمنه وسلاطين آل عثمان إلى زمنه أيضاء ومثل نقوله: الكثيرة من كتب ووثائق المتقدمين والمعاصرين مثل الاكتفاء لابن الكردبوس، وكتاب تاريخ الدول للملطي، وأنس الجليل للعليمي، بالإضافة إلى مجموعة من عقود الزواج على عادة أهل مدينة الجزائر، وكذلك مجموعة من الأسانيد والإجازات والقصص".[80]

ويبدو أن هذا التقسيم هو الذي جعل أبو القاسم سعد الله يحكم على ابن حمَّادوش بأنه يكتب مسودة رحلة، وأن محتواها غير منسجم وغير متماسك، ذلك أنه لا يكاد يربط بين أجزائها سوى الترتيب الزمني، وأنه قد اتبع في رحلته طريقة السنوات، أي أنه كان يسجل ما رأى وما عاش وما وقع من أحداث خلال سنة ثم ينتقل إلى السنة الموالية وهكذا، وإذا أخذنا بالنص الموجود عندنا فالرحلة لا تتجاوز خمس أو ست سنوات من عمر المؤلف، وهي لا ريب لا تعد شيئا بالنسبة لعمره الطويل الذي تجاوز بحسب بعض الآراء، تسعين سنة[81]... نتفق معه في هذا الرأي لأن رحلة ابن حمَّادوش تفتقر إلى الوحدة العضوية ولعل مرد ذلك غنى الرحلة وتشعب موضوعاتها، وعلى هذا يمكن أن نصل إلى نتيجة مفادها أن المنهج الذي سار عليه ابن حمَّادوش غير واضح وغير محدد، ولكن هذا لا ينفي القيمة العلمية والمعرفية التي تحتوي عليها.

[80] أبو القاسم سعد الله، أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر، ص 230
[81] مرجع سابق، ص 231

المطلب الثالث: دور الأوصاف في تجسيد أحداث الرحلة

احتل الوصف مكانة كبيرة في رحلة ابن حمَّادوش التي كانت تمثل خطا طويلا منه، فهو يحمل أبعادا جمالية، بما يقدمه من رسم لملامح الشخصيات كما هو الحال في وصفه لأحد شيوخه"مجلسه كثير الفوائد عظيم الفرائد مليح الحكايات، وكان له قوة عارضة ومزيد ذكاء مع نزاهة وديانة وحفظ مروءة وضبط حال..."[82]

أو إضاءات عن المواقع والأحداث، حيث حاول الرحّالة رصد كل ما شاهده وسمعه وسجل كل ما وقعت عليه عينه من مشاهد شتي تتعلق ببلده الجزائر وبالبلد الذي زاره أي المغرب فذكر مجموعة من الوديان والأماكن وكل ما يتعاطاه الناس من مختلف الأنشطة والمناسبات والأعياد والعادات والتقاليد ونقل كل ذلك بدقة وصدق متناهيين إلى كل من حالت دون رحيلهم الأسباب والعوائق.

وقد استطاعت هذه الأوصاف أن تعبر عن انطباعات الرحّالة، وترسم صورة لشخصيته، فهو ينقل الأحداث والأخبار، ويصفها بحيث تصل إلى عالم المحسوسات المدركة بالمشاهدة والسماع، بحيث يضفي ابن حمَّادوش على رحلته من مشاعره وعواطفه، ويجعلها تنبض بالحياة والحركة، فقدمت رحلته بذلك المتعة والتشويق للقارئ، وكشفت عن مكامن الجمال الطبيعي لمختلف المخلوقات الغريبة التي شاهدها الرحّالة أثناء تنقلاته ومن ذلك وصفه لأحدى الغرائب التي أثارت انتباهه وهو في طريقه بين تطوان ومكناس حيث يقول:"ومن غريب ما رأيت أني رأيت تمرين كل واحدة في أفحصها فوق الماء تحضن بيضها، فلما بلغت المبيت شهد أهل الحي كلهم، كبيرهم وصغيرهم، أن الغروب وغطاست وطيور إلا فوق الماء في الموضع الذي يكون عليه كقطعة حصير من الكلأ ثم يبنون بها أفحوصهم، ويبيضون ويفرخون ولا يمت بيضهم الماء وإذا مسه الماء فسد، فإنها بنى بناء صحيحا جدا وأؤنا ببيض الغر، عظمه كبيض الدجاج ولونه كلون بيض الحجل إلا أنه أشد بياضا من بيض الحجل، وفيه نقط سود، والغر طائر قدر الدجاج أسود اللون وبين عينيه غرة بيضاء".[83]

والملاحظ أن وصف الرحّالة في هذا المقطع كان دقيقا جدا وقد بدا فيه مهتما بذكر كل التفاصيل عن هذا الطائر الذي تحدث عنه.

ومن البقاع والأماكن التي أحسن ابن حمَّادوش توصيفها بكل موضوعية وواقعية ما جاء في حديثه عن أحد المواقع التي قال فيها:"ومنه تعدينا على بلاد يقال لها القصر، فليس يسكنها حر، مهدمة البناء، نائية الماء، ومع أنها كبيرة المنشأ قليلة الممشى عددت بها ثلاث عشرة صومعة سوداءات...".[84]

وصفوة القول تتجلى في أن ابن حمَّادوش لم يقتصر في وصفه على الأشخاص والحيوانات بل وصف الأمكنة والأوضاع الاجتماعية والجمادات وكل ما استطاعت أن تلتقطه عدسته من مشاهد منذ بداية رحلته إلى نهايتها.

[82] عبد الرزاق بن حمّادوش، الرحلة، ص 44
[83] مرجع سابق، ص 73
[84] مرجع سابق، ص 72

أما الشخوص في الرحلة فتقول يمنى العيد"إن الذات... بانتمائها إلى مجتمع وتاريخ ذات متباينة بل متناقضة، ومتصارعة ولو في صحتها وعليها والصراع في الرحلة رواية للسيرة، هو بين الذات وذاتها، وداخل آل (نحن) من جهة ومع آخر يتواطأ مع هذه آل (نحن) وضدها من جهة ثانية، فآلات في بعض الرحلات صورة محورية، حيث صورت الرحلة سيرة أصحابها، والواقع المعيش، والواقع المستمد من معايشة الآخرين، وهذا ما جعل الرحلات أقرب من الشكل الفتي منها إلى التسجيل الجغرافي".[85]

والقارئ لرحلة ابن حمَّادوش يلاحظ توفرها على شخصيات متناهية ومتعددة الأحوال والمستويات الاجتماعية والفكرية والثقافية والصفات والطبقات منهم العلماء والشعراء والأدباء والتجار وأصحاب الحرف.

ولعل الشخصية التي اعتمدها الرحّالة في المقام الأول هي شخصية الرحّالة وهي محورية كفلت الترابط بين أجزاء العمل الواحد بحيث دارت الأحداث.

من خلال الطريقة المذكورة أعلاه، أثبتت رحلة ابن حمَّادوش أنها تتميز بتعبير وموضوعية محددة لأنها تجسد حضوراً مستمراً وفعالاً .وتجدر الإشارة إلى أن المواد التي تتكون منها هذه الرحلة تم جمعها وتشكيلها من خلال التجارب الشخصية للمسافر ومحادثاته مع شخصيات حقيقية موجودة في الزمان والمكان ولها بعد تاريخي وجغرافي .اشتهر بهذه الشخصيات في رحلته، الذين يذهبون بالأسماء والألقاب التي عرفوها في الحياة الواقعية .ولهذا فإن رحلة ابن حمَّادوش تضم العديد من الشخصيات العلمية ذات القيمة الأدبية أو القانونية مثل الشيخ البناني ومحمد الفاسي الورزازي والحسن البوسي وغيرهم .إلا أن خطاب هذه الرحلة يركز بشكل أساسي على بطل الرحلة أو المسافر وخبراته الشخصية ومعرفته الموضوعية، ويؤكد أن أبطال الرحلة عاشوا في عصرهم وفي حضارة ذلك الوقت .وقد أثرت على ما حدث وعكست بعض الحقيقة لأنها لم تكن مجرد وسيلة لنقل الأحداث، بل كانت حية بطريقة ما .ويرجع ذلك إلى الحضور الدائم للمسافر، وإدراكه وجود حوار يضفي على الرحلة سمات الفرح والحيوية، مما يلفت انتباه القارئ لمتابعة الأحداث .وهكذا فإن ابن حمَّادوش رحالة عام، كاتب وقاص ومؤرخ سجل لنا العديد من الأحداث والحقائق. حتى لو كان الأستاذ.

[85] العيد يمنى، السيرة الذاتية و الروائية،مجلة الفصول،المجلد 15،ع4، ص 20

خاتمة

خاتمة:

في خاتم بحثنا هذا نقول أن عبد الرزاق ابن حمَّادوش العاصمي هو أحد العلماء الجزائريين العظماء في عصر الثاني عشر، والمناهضين للعهد العثماني في الجزائر ـ البشوات ـ، انتمى ابن حمَّادوش إلى أسرة من اشرف الأسر الجزائرية.

تلقى ابن حمَّادوش العلوم على يدي شيوخ، وكان كثير الترحال والأسفار، فزار بلاد المشرق وتونس والرباط... وغيرها من البلدان والقرى... واستقى علومه من كل بلد حل به واحتك بشيوخها"علماءها"، كما نقل عنه انه اهتم بشراء الكتب والمطالعة.

كان ابن حمَّادوش ميسور الحال ولم يكن من الأغنياء المترفين، ما جعلها يدخل في مجال التجار وكثيرا ما سفر لأجلها، فكانت الأحوال الاقتصادية تنعكس على مزاج ابن حمَّادوش وعلاقته العائلية والاجتماعية العامّة، فإذا كسدت تجارته ساءت أحواله المادية وضاع ماله وغضبت عنه عياله وعيّرته أمه، وإذا باع سلعة وربح توفر المال وسعد الحال وفرح من حوله وطاب لنفسه مقامها فيقدم على التأليف ويشرى الكتب وعاد اليه أهله.

وكان له دكان قريبا من الجامع الكبير يبيع فيه بضاعته ويقرأ وينسخ كتبه ويجلس فيه للزوار من الطلبة والسائليين في الشؤون العامة.

وأننا نعتقد أن مؤلفات ابن حمَّادوش كانت ذات صيت واسع لدى علماء بلده فالمرح جان بعضها وخصوصا كتاب"الجواهر المكنون"كان معروفا ومتداولا في ذك العصر ومحط اهتماما واسع آن ذك لم كتبه ابن حمَّادوش عن ولاة الجزائر في تلك الحقبة من الزمن.

ولعل لرحلته المشهور السبب الرئيسي في جذب اهتمام علماء المسلمين وغيره مسلمين لما حملته من أخبار سياسية ودينية واجتماعية، فعلماء أوروبا اهتموا بآثاره العلمية خصوصا الجانب المتعلق بالطب الشعبي العربي، والذي نجده في الجزء المسمى"كشف الرموز"، والذي ترجم للفرنسية ونشر بها.

فقد استطاع ابن حمَّادوش عرض أفكاره وملاحظاته، كما اظهر اهتمام واضحا بميدان الحياة الاجتماعية والمظاهر الاقتصادية ومختلف الأنشطة مما يدل دلالة واضحة على الواقعية الأحداث التي رواها كما يدل على استطلاعه الواسع وخبرته في معاينة الوقائع والمواقع ذك العصر.

ومن خلال الاطلاع الواسع عن رحلة ابن حمَّادوش نجد أن هذا الأخير استطاع رسم صورة حية عن المغرب والجزائر وتجسيد أخبارها بواقعية متناهية وبصدق ووصف حي لأحداث ذك العصر، كما توحي لنا هذه الرحلة أيضا بتفرد ابن حمَّادوش في علومه وفكر عن باقي معاصره، فرصدت رحلته بذلك التنوع المعرفي والحضاري وتنوع مختلف الجوانب الحياة فيها.

خـــاتـــمـــة

وفي خاتم هذه الدراسة نجد أن لابن حمَّادوش ورحلته اثأر بارز في سرد العلوم المختلة والثقافة المجتمع الجزائري والمغربي في تلك الفترة وشؤونهم السياسية والاقتصادية وتجسيد كل هذا في صورة بسيط وسهلة الفهم للمتلقي.

فهرس المحتوى

فـهـرس المـحـتـوى

شكر.....

إهداء .....

ملخص الدراسة: .....

مقدمة.....أ

الفصل الأول .....

حياة ابن حمَّادوش وعصره .....

تمهيد: 10

المبحث الأول: حياة ابن حمَّادوش وعصره 11

المطلب الأول: تسميه ونسبه.....12

المطلب الثاني: مولده وووفاته ابن حمَّادوش.....13

المطلب الثالث: أسرته وأصدقائه وخصومه.....14

المبحث الثاني: التعلم إلى التعليم والتأليف 16

المطلب الثالث: مكتبة ابن حمَّادوش 24

الفصل الثاني: 25

رحلة الرحّالة عبد الرزاق ابن حمَّادوش.....25

تمهيد: 26

المبحث الأول: مفاهيم عن الرحلة ومضمونها.....27

المطلب الأول: مفهوم الرحلة.....28

المطلب الثاني: مميزاتها هده الرحلة 31

المطلب الثالث: تقسيمات الرحلة.....33

المبحث الثاني: البناء الفني للرحلة.....36

المطلب الأول: اللغة والأسلو ب تدون الرحلة 37

المطلب الثاني: المنهج كتابة الرحلة.....39

المطلب الثالث: دور الأو صاف في تجسيد أحداث الرحلة.....41

خاتمة.....43

خاتمة: 44

فهرس المحتوى.....46

قائمة المراجع والمصادر 48

قائمة المراجع والمصادر

1. المصادر

- الآيات القرآنية:

سورة الكهف الآيات [66] و[68].

سور التوبة الآية [122]

- الأحاديث النبوية الشريفة:

- حديث أخرجه البخاري في الصحيح، برقم"78"

- حديث أخرجه الترمذي في الجامع، برقم"2646"

- حديث أخرجه الترمذي في الجامع، برقم"2648"

- أخرجه ابن ماجه في مقدمة السنن، برقم"266"

2. المراجع

- الكتب

❖ بكاري عبد القادر، مقال

❖ أبو القاسم سعد الله"مقدمة التحقيق"، رحلة ابن حمَّادوش الجزائري"لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، المؤسسة الوطنية للكتاب،سنة 1983.

❖ عبد الرزاق ابن حمَّادوش الجزائري، لسان المقال في النسب والحسب والحال، عالم المعرفة، الجزائر2011.

❖ شارف محمد، الإجازة في رحلة ابن حمَّادوش، مخبر الدراسات الإفريقي للعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة ادرار، الجزائر سنة 2021.

❖ الدكتور أبو القاسم سعد الله، ابن حمَّادوش الجزائري حياته وأثاره، الطبيب الرحّالة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1982.

❖ أبو القاسم سعد الله، الطبيب الرحّالة ابن حمَّادوش الجزائري، عالم المعرفة، الجزائر 2011.

❖ أبو القاسم سعد الله،محاضرة عن رحلة بن حمّادوش الجزائري، جامعة الجزائر، 05 يوليو1982م

❖ أنساعد (سميرة)، الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، دراسة في النشأة والتطور والبنية، دار الهدى الجزائر،سنة 2009.

❖ أنساعد (سميرة)،الرحلات الحجازية في الأدب الجزائري من القرن الحادي عشر إلى الثالث عشر، الوكالة الإفريقية للإنتاج السينمائي والثقافي، الجزائر،ط1، سنة 2011.

❖ بالحميسي (مولاي)، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،ط2، سنة 1981.

❖ أبوعبد الله محمد بن إسماعيل،صحيح البخاري، دار المعرفة، بيروت، ط2، سنة 2007.

❖ محمد بن عبد الله، رحلة ابن بطوطة في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار الجزء الأول والثاني، دار الفكر، بيروت، ط1.

❖ بن قينة عمر في الأدب الجزائري الحديث تأريخا وأنواع وقضايا وأعلماء ديوان المطوعات الجامعية، الجزائر،سنة 1995.

-

- بلعابد عبد الحق، جيرار جنيت من النص إلى المناص، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، سنة 2008.
- بن قينة عمر، الخطاب القومي في الثقافة الجزائرية، منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق 1999.
- بن قينة عمر، الشكل والصورة في رحلة الجزائرية الحديثة، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر.
- أبو القاسم سعد الله، الطبيب الرحّالة ابن حمَّادوش الجزائري، عالم المعرفة، الجزائر 2011.
- هارت جورج، الحضارة المصرية القديمة،هالة ترك حسانين، فضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، سنة 2007.
- ابن حمَّادوش، كشف الرموز في بيان الأعشاب، طبع على ذمة أحمد ابن مراد التركي، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت.
- أبو لعسل كمال،رحلة أبو حامد الغرناطي"دراسة في الفضاء"، نوميديا للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر.
- حليفي شعيب، الرحلة في الأدب العربي.
- الموافي"ناصر عبد الرزاق"، الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري.
- الموافي"ناصر عبد الرزاق"، الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري.
- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر.
- العيد يمنى، السيرة الذاتية والروائية،مجلة الفصول،المجلد 15،ع4

قائمة الآية و الأحاديث

الآية القرآنية:

- ✓ سورة التوبة:

﴿فلو لا نَفرَ مِن كُلّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ ليتفقهوا في الدِين وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إليه مْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ الآية 122.

- ✓ سورة الكهف:

﴿فَلَمَّا جَاوزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا...﴾ الآية 62

قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَّبِعْكَ عَلَى أن تُعَلِّمَن مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا....﴾ الآية 66

الأحاديث الشريفة:

- ✓ أحديث أخرجه البخاري في الصحيح:

«مَنْ سَلَكَ طريقا يلتمس فيه عِلْماً؛ سهل الله له طريقاً إلى الجنَّة» برقم"78"

«...بينما مُوسَى في ملأٍ من بني إسرائيل إذْ جَاءَهُ رَجُلٌ فقال: أتَعْلَمُ أحداً أعْلَمُ مِنْكَ؟ قال مُوسَى: لا، فأوحى الله - عزَّ وجل - إلى مُوسَى بَلَى عَبْدُنَا خِضَرٌ»

- ✓ أحديث أخرجه الترمذي في الجامع:

«من خرج في طلب العلم؛ فهو في سبيل الله حَتَّى يرجع» برقم"2646"

- ✓ أخرجه ابن ماجه في مقدمة السنن:

«من خرج من بيته ابتغاء العِلم؛ وضعت المَلائِكَةُ أجنحتها له رضاً بما يصنعُ» برقم"266"